٤- من كنوز ابن عطاء الله السكندرى

التَّنويرُ

فى إسقاطِ التَّدبيرِ

تأليف

الإمام القطب الربّانى

سَيِّدى أحمد بن عطاء الله السَّكندرى

رضى الله تعالى عنه

تحقيق

محمد عبد الرحمن الشّاغول

من تراث ابن عطاء الله السكندري
- ٤ -

التَّنويرُ فِي إسقاطِ التَّدبيرِ

تأليف

الإمام القطب الرّبّاني
سيّدي أحمد بن عطاء الله السّكندري
رضي الله تعالى عنه

تحقيق

محمّد عبد الرحمن الشّاغول

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

ابن عطاء الله الاسكندري ، احمد بن محمد بن عبدالكريم – ١٣٠٩
التنوير في إسقاط التدبير
تحقيق محمد عبدالرحمن الشاغول
القاهرة : المكتبة الأزهرية للتراث ، ٢٠٠٧
ص ، سم (من تراث ابن عطاء الله السكندرى، ٤)
تدمك ٥٦٥ ١ ٣١٥ ٩٧٧
١- التصوف الإسلامي ٢٦٠
أ- الشاغول ، محمد عبدالرحمن (محقق)
ب- العنوان

اسم الكتاب : التنوير في إسقاط التدبير
اسم المؤلف : سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري
رقم الطبعة : الأولى
السنة : ٢٠٠٧
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٤٧١٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N/ 977 – 315 – 156 – 5
اسم الناشر : المكتبة الأزهرية للتراث
العنوان : ٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف
البلد : جمهورية مصر العربية
المحافظة : القاهرة
التليفون : ٢٥١٢٠٨٤٧
اسم المطبعة : دار السلام الحديثة
العنوان : ٢٤ ش عمر المختار – الحى السابع – م. نصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة التحقيـق

الحمد لله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلَّم؛

أما بعد:

فهذا كتاب "**التنوير فى إسقاط التدبير** " لسيدى وتاج رأسى الإمام ابن عطاء الله السكندرى – رضى الله عنه.

وهو كتاب عزيزِ نادر فى موضوعه نافع فى مادته ، وهو نور بين يـدى قارئه، يعلمنا فيه سيدنا الإمام ابن عطاء الله كيف نسقط التدبير مـع الله، وكيـف نفوض أمر الرزق لله، وكيف نتوكل على الله، وكيف لا يكون لنا حول ولا قوة مع الله، وكيف نريح أنفسنا من كدر التدبير، وكيف نرضى بما قسم لنا، وكيف نصـل إلىمراد الله منا فى ذلك، إلى غير ذلك من الكنوز التى لا يعلم قدرها إلا المـؤمن العاقل الحريص على السعادة فى الدارين، وعلى الوقوف على مرضاة ربـه قبـل ذلك، وكل هذا لا يكون إلا بالتربى على عالم مثل سيدى ابن عطاء الله، ولا يكون إلا بالمجاهدة التى ربما استغرقت عمر المؤمن كله، وقد يفتح الله عليه فى لحظـة بكرمه وإنعامه.

وقد اعتمدت على نسخة مخطوطة للكتاب وأخرى مطبوعة أثناء عملى فيه.

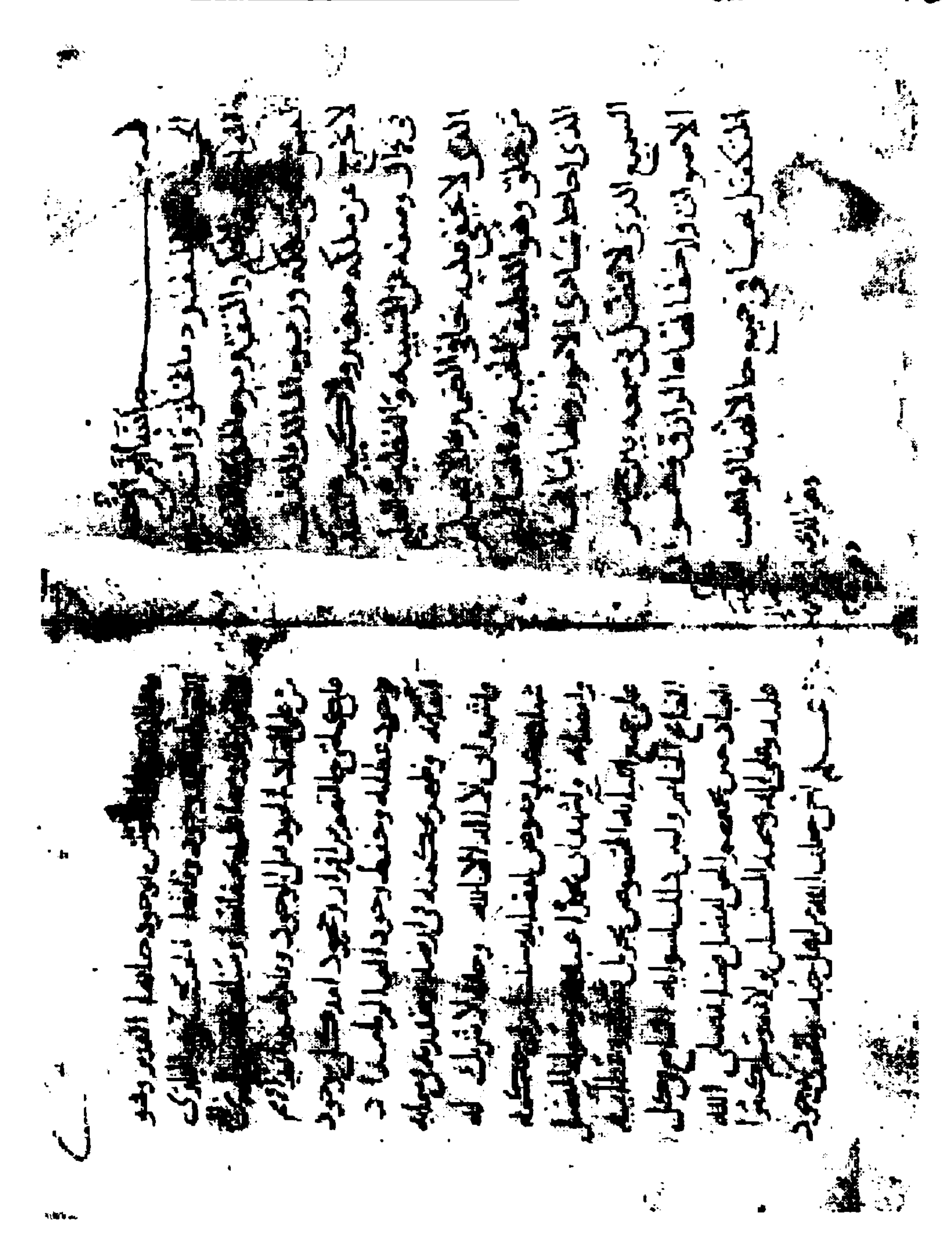
هذا وقد قمت بتخريج الآيات الكريمة بالكتاب، وعلقت على بعض المواضع فيه بما يناسب المقام، وترجمت لجملةٍ من الأعلام المذكورين فيه، وربما تكلمـت على الأوزان العروضية لبعض أبيات الشعر بالكتاب، وترجمت لمؤلـف الكتـاب سيدى ابن عطاء السكندرى، ووضعت فهرساً له تبعا لعناوينه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه ومن اهتدى بهدية إلى يوم الدين، آمين.

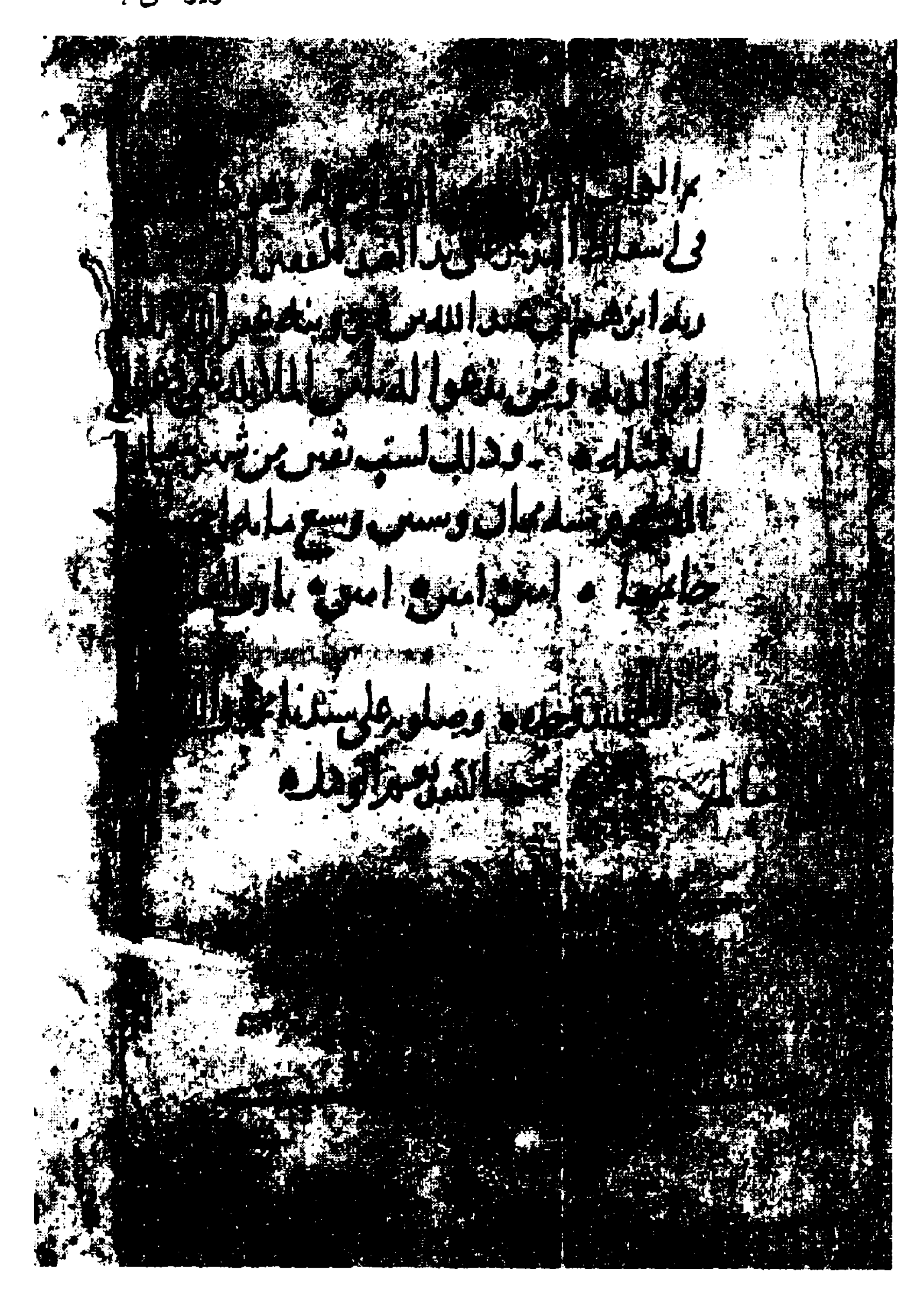
المحقق

محمد عبد الرحمن الشاغول

مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمى



صورة اللوحة الأولى من المخطوط



صورة اللوحة الأخيرة من المخطوط

ترجمة المؤلف

نسبه رضي الله عنه :

هو سيدي الإمام العارف الرباني أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله الشيخ تاج الدين أبو الفضل الجزامي السكندري - أصله من الإسكندرية ثم قطن مصر- الشاذلي، إمام تاج علمه مرتفعٌ ، وشمل فضله مجتمع ، وخبر نعته مشتهر، ودرّ حكمه منتشر، ومصنفاته مفيدة وحلل ذكره على مر الأيام جديدة ، هجر النوم وقلاه، ولو لم يكن له غير كتاب « **التنوير**» لكفاه - وهو كتاب «**التنوير في إسقاط التدبير**».

مذهبه الفقهي ومكانته العلمية :

قال التاج السبكي : أراه كان شافعيًا ، وقال غيره : كان مالكيًا.

وله اليد الطولى في العلوم الظاهرة والمعارف الباطنة ، إمام في التفسير ، والحديث ، والأصول ، متبحِّر في الفقه، وله وعظ يعذب في القلوب، ويحلـو في النفوس.

وكان قد تدرب بقواعد العلوم الشرعية، وهَذَّبَتْه العلوم ، فاستدل بالمنطوق على المفهوم ، فساد بذلك العصابة الصوفية ، فكان له من الرياسة شِرْبٌ معلومٌ .

مشايخه:

منهم سيدي الشيخ ياقوت - رضي الله عنه - وقبله سيدي الشيخ أبو العباس المرسي.

تلاميذه:

أخذ عنه جمعٌ من الأعيان، وانتفع به خلقٌ كثيرٌ، منهم شيخ الشافعية التقي السبكي.

من مؤلفاته:

له كتاب : « **الحكم العطائية** » وهو أشهر كتبه ، من تأمله قال : ما هذا منشور ، إن هذا إلا لؤلؤ منثور ، كل سطر منه جنة قد حفَّت بالثمار، وأحدقت بأنوار الأزهار ، وكل شطر لو يباع بثمنٍ بخسٍ لاشتُرِى بألف دينار.

وله كتاب :« **التنوير في إسقاط التدبير** »، وهو الكتاب الذى نحن بصدده.

وله كتاب : « **تاج العروس وأنس النفوس** » وقد وافقنى الحظ أن أسند لى تحقيقه، فخرج محققا بالمكتبة الأزهرية للتراث.

وله كتاب « **لطائف المنن في مناقب سيدي الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشيخ أبي الحسن**»، وقد حققته أيضا.

وله رسالة في الكلام على قوله تعالى : **﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عليكم كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.وقد حققتها بفضل الله تعالى بالمكتبة الأزهرية أيضا.

-وله رسالة : « **هتك الأستار في علم الأسرار** »، وقد امتن الله علىّ بتحقيقها قبل ذلك.

ومن كراماته:

أن الكمال ابن الهمـام زار قبـره - رضـي الله عنـه - فقـرأ عنـده سورة " هود " حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿ **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾ فأجابه من القبر بصوتٍ عالٍ : ياكمال ليس فينا شقيّ ، فأوصى الكمال بأن يدفن هناك.

ومنها : أن رجلاً من تلامذته حجّ ، فرأي الشيخ في المطاف وخلف المقام، وفي المسعى ، وفي عرفة ، فلما رجع سأل عن الشيخ : هل خرج من البلـد فـي غيبته في الحج ؟ فقالوا : لا ! فدخل إليه، وسلَّم عليه، فقال له : مـن رأيـت فـي سفرتك هذه من الرجال ؟ قال : يا سيدي رأيتك، فتبسَّم، وقال : الرجل الكبير يملأ الكون. لو دعى القطب من جحرٍ لأجاب.

وفاته رضي الله عنه :

توفي رضي الله عنه - سنة تسع وسبعمائة، ودفن بالقرافة بقرب بني الوفا، وقرأت في « **الطبقات الكبرى** » لسيدي الشعراني أنه توفى سنة سـبع - بالسـين بعدها باء - وسبعمائة. [١]

---

[١] الترجمة من كتاب " الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية " للإمام المنـاوي (ج ٣ - الطبقة الثانية - ص ٥ : ص ٧ طبعة المكتبة الأزهرية) ، ومن كتـاب " الطبقـات الكبـرى " لشيخه الإمام الشعراني (ج ٢ - ص ٣٩١ - طبعة التوفيقية).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير، الواحد فى الحكم والتقدير، الملك الذى ليس له فى ملكه وزير، المالك الذى لا يخرج عن ملكه صغيرٌ ولا كبير، المتقدس فى كمال وصفه عن الشبيه والنظير، العليم الذى لا يخفى عليه خافى الضمير، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، العالم الذى أحاط بمبادئ الأمور ونهاياتها، السميع الذى لا فضل فى سمعه بين جهر الأصوات وإخفاتها، الرازق وهو المنعم على الخليقه بإيصال أقواتها[١]، وهو القيوم المتكفل بها فى جميع حالاتها، الواهب وهو الذى مَنَّ على النفوس بوجود حياتها، القدير وهو المعيد لها بعد وجود وفاتها، الحسيب وهو المجازى لها يوم قدومها عليه بحسناتها وسيئاتها، سبحانه من إله مَنَّ على العباد بالجود قبل الوجود، وقام لهم بأرزاقهم على كلتا حالاتهم من إقرارٍ وجحودٍ[٢]، أمد كل موجود بوجود عطائه، وحفظ وجود العالم بإمداد إبقائه[٣]، وظهر بحكمته فى أرضه، وبقدرته فى سمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ مفوِّضٍ لقضائه مستسلمٍ فى حكمه وإمضائه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المفضَّل على جميع أنبيائه، المخصوص بجزيل فضله وعطائه، الفاتح الخاتم، وليس ذلك لسوائه، الشافع فى كل العباد حين يجمعهم الحق لفصل قضائه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المستمسكين بولائه وسلم كثيراً.

---

(١) هذا براعة استهلالٍ من المصنف – رضى الله عنه – إذ أتى حيال المقصود بما ينوِّه عنه، ويشير بالبنان عما فى الجنان من الكلام.

(٢) ففى الحديث: «لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضةٍ لما سقى منها كافراً شربة ماءٍ» أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) فلو انقطع عنا الإمداد لصرنا إلى الفناء.

اعلم أخى جعلك الله من أهل حبه، وأتحفك بوجود قربه، وأذاقك من شراب أهل وده، وأمَّنك بدوام وصلته من إعراضه وصده، ووصلك بعباده الذين خصهم بمراسلاته وجبر كسر قلوبهم لَمَّا علموا أنه لا تدركه الأبصار بأنوار تجلياته[١]، وفتح رياض القرب وأهَبَّ منها على قلوبهم وَارِدات نفحاته، أشهدهم سابق تدبيره فيهم فسلموا إليه القياد، وكشف عن خفى لطفه فى صنعه فخرجوا عن المنازعة والعناد، فهم مستسلمون إليه ومتوكلون فى كل الأمور عليه علماً منهم أنه لا يصل عبد إلى الرضا إلا بالرضا، ولا يبلغ إلى صريح العبودية إلا بالاستسلام إلى القضاء؛ فلم تطرقهم الأغيار[٢] ولم ترد عليهم الأكدار كما قال قائلهم:

لا تهتدى نُوَبُ الزمان إليهم * ولهم على الخَطْبِ الشديد لجامُ[٣]

تجرى عليهم أحكامه وهم لجلاله حامدون ولحكمه مستسلمون كما قال:

تجرى عليك صروفه * وهموم سِرِّك مطرِقه[٤]

وإن من طلب الوصول إلى الله فحقيق عليه أن يأتى الأمر من بابه، وأن يتوصل إليه بوجود أسبابه، وأهمُّ ما ينبغى لك الخروج عنه والتطهير منه: وجود التدبير ومنازعة المقادير، فصنفتُ هذا الكتاب مبيناً لذلك ومظهراً لما هنالك، وسميته "**التنوير فى إسقاط التدبير**"؛ ليكون اسمه موافقاً مسمَّاه، ولفظه طباق معناه، وأسأل الله أن يجعله لوجهه الكريم، وأن يتقبله بفضله العميم، وأن ينفع به الخاص والعام بمحمدٍ عليه السلام، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

---

(١) أى: حينما حصل منهم الإدراك لعجزهم عن إدراكه بالأبصار فى الدار أمده بهذا المدد، وكما قالوا: "العجز عن الإدراك إدراك".

(٢) الأغيار: جمع غير، وهو عند السادة الصوفية كل ما سوى الله تعالى من العوالم.

(٣) البيت من بحر الكامل، ووزنه (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) مرتين.

(٤) البيت من مجزوء الكامل (متفاعلن متفاعلن) مرتين.

قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم:٢٤، ٢٥] وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً»[1] وقال ﷺ: «اعبد الله بالرضا، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خيرٌ كثير»[2] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على ترك التدبير ومنازعة المقادير إما نصاً صريحاً وإما إشارةً وتلويحاً، وقد قال أهل المعرفة: من لم يدبر دُبِّرَ له، وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى – رضى الله عنه[3]: إن كان ولابد من التدبير فدبروا أن لا تدبروا. وقال أيضاً: لا تختر من أمرك شيئاً واختر أن لا تختار، وفر من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شىءٍ إلى الله. وربك يخلق ما يشاء ويختار.

---

(١) أخرجه الإمام مسلمٌ فى صحيحه.

(٢) يروى عن سيدنا ابن عباسٍ مرفوعاً، وقد أخرجه ابن أبى الدنيا فى "أدب الدنيا والدين" – (الفصل الثانى فى الصبر والجزع).

(٣) الإمام أبو الحسن الشاذلى: على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى بالشين والذال المعجمتين، وشاذلة قرية من أفريقية، الضرير الزاهد، نزيل الإسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، وكان كبير المقدار عالى المنار، له عبارات فيها رموز، فوَّق ابن تيمية سهمه إليه فرده عليه، وصحب الشيخ نجم الدين الأصفهانى وابن مشيش وغيرهما، وحج مرات، ومات بصحراء "عيذاب" قاصداً الحج، فدفن هناك فى ذى القعدة سنة ستٍ وخمسين وستمائة (٦٥٦). من كلامه – رضى الله عنه: "عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبى ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا معصومٌ لم يقترف ذنباً قط، وتقدس عن ذلك، فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب فى وقت من الأوقات" وقد أفرده المؤلف وتلميذه أبا العباس المرسى بالترجمة فى كتابه "لطائف المنن".... انظر "الطبقات الكبرى" للإمام عبد الوهاب الشعرانى (جـ٢ – صـ٣٦٣: صـ٣٧٧) طبعة التوفيقية.

قوله تعالى فى الآية الأولى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان الحقيقى لا يحصل إلا فيمن حكَّم الله ورسوله على نفسه قولاً وفعلاً وأخذاً وتركاً وحباً وبغضاً، ويشمل ذلك التكليف، وحُكْم التعريف والتسليم والانقياد واجب على كل مؤمن فى كليهما، وأحكام التكليف: الأوامر والنواهى المتعلقة باكتساب العباد[١]، وأحكام التعريف: هو ما أورده عليه[٢] من قهر المراد، فتبين من هذا أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان إلا بأمرين: الامتثال بأمره والاستسلام لقهره، ثم إنه سبحانه لم يكتفِ بنفى الإيمان عمن لم يحكّم أو حكَّم ووجد الحرج فى نفسه حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله ﷺ رأفة وعناية وتخصيصاً ورعاية لأنه لم يقل: فلا والرب، وإنما قال: :﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ففى ذلك تأكيد بالقسم[٣]، وتأكيده فى القسم علماً منه سبحانه بما النفوس منطويةٌ عليه من حب الغَلَبة ووجود النصرة سواءٌ كان الحق عليها أوْ لها، وفى ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ؛ إذ جعل حكمه حكمه وقضاءه قضاءه، وأوجب على العباد الاستسلام لحكمه والانقياد لأمره، ولم يقبل منهم الإيمان بإلاهيته حتى يذعنوا لأحكام رسوله ﷺ لأنه كما وصفه ربه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣، ٤] فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] وأكد ذلك بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] وفى الآية إشارة أخرى إلى تعظيم قدره وتفخيم أمره ﷺ وهى قوله: (وربك) فأضاف نفسه إليه[٤] كما قال فى الآية

---

(١) ومعنى التكليف فى لسان الشرع: ارتكاب ما فيه مشقة، ويقال أيضاً: إلزام الكلفة على المخاطب.

(٢) قوله: (عليه) أى: على المكلَّف، فهو المذكور معنىً فى كلامه وإن لم يتقدم له ذكرٌ لفظى.

(٣) لأنه سبحانه إذا أقسم بما هو من مخلوقاته دل على عظيم قدر ما أقسم به، فما بالنا وقد أقسم بأشرف الخلق أجمعين ﷺ.

(٤) وهى إضافة تشريف للنبى ﷺ، كما يقال: (بيت الله)، و(ناقة الله).

الأخرى: ﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:١، ٢] فأضاف الحق نفسه سبحانه إلى محمد، وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين وتفاوت ما بين الرتبتين، ثم إنه سبحانه لم يكتفِ بالتحكيم[١] الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج وهو الضيق من نفوسهم فى أحكامه ﷺ سواءٌ كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وإنما تضيق النفوس لفقدان الأنوار ووجود الأغيار، ففيه يكون الحرج وهو الضيق، والمؤمنون ليسوا كذلك؛ إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشرحت فكانت واسعةً بنور الواسع العليم[٢]، ممدودةً بوجود فضله العظيم، مهيَّأة لِوَارِدَات أحكامه، مفوضةً له فى نقضه وإبرامه.

فائدة:

اعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أن يقوى عبداً على ما يريد أن يورده عليه من وجود حِكَمِهِ ألبسه من أنوار وصفه، وكساه من وجود نعته[٣] فتنزلت الأقدار وقد سبقت إليه الأنوار، فكان بربه لا بنفسه[٤]، فقوى لأعبائها وصبر للأوائها، وإنما يعينهم على حمل الأقدار ورود الأنوار، وإن شئت قلت: وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام، وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل البلايا واردات العطايا، وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل الأقدار شهود حُسن الاختيار، وإن شئت قلت: وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على ما جرى علمهم بأنه يرى، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على

---

(١) فى المخطوط (التحكم) بغير الياء التحتية بعد الكاف، والصحيح ما أثبته.

(٢) لأنها لمَّا اتسعت وانشرحت بالإيمان زادها الله مدداً من عنده، فقد قال العلماء: "من استعدَّ استمدَّ"، و"الواردات على قدر الاستعداد".

(٣) وذلك بأن يكون متخلقاً بأخلاق الله تعالى، فيكون العبد صبوراً حليماً كريماً سخياً رءوفاً رحيماً، على قدر ما لا تنفك عنه نفوس الكاملين من البشر، ولله تعالى الكمال المطلق، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ومما يروى: "تخلقوا بأخلاق الله، ولا تفكروا فى ذات الله".

(٤) وإن الله تعالى لينزل البلاء وينزل معه الصبر.

القضا علمهم بأن الصبر يورث الرضا، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار، وإن شئت قلت: إنما قوَّاهم على حمل أثقال التكليف وورود أسرار التعريف، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره[١]. فهذه عشرة أسباب توجب صبر العبد وثبوته لأحكام سيده وقوته عند ورودها، وهو المعطى لكل ذلك بفضله، والمانُّ بذلك على ذوى العناية من أهله. ولنتكلم الآن على كل قسم منها لتكمل الفائدة، وتحصل الجدوى والعائدة.

فأما الأول وهو:

إنما يعينهم على حمل الأقدار ورود الأنوار، وذلك أن الأنوار إذا وردت كشفت للعبد عن قرب الحق سبحانه منه، وأن هذه الأحكام لم تكن إلا عنه فكان علمه بأن الأحكام لم تكن إلا عنه إنما هى من سيده سلوة له وسبب لوجود صبره[٢]. ألم تسمع ما قال الله سبحانه لنبيه ﷺ: **﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾** [الطور:٤٨] أى ليس هو حكم غيره فيشق عليك بل هو حكم سيدك القائم بإحسانه إليك، ولنا فى هذا المعنى شعر:

وخفف عنى ما ألاقى من العنا * بأنك أنت المبتلى والمقدِّرُ

وما لامرئ عما قضى الله معدل * وليس له منه الذى يتخيَّرُ[٣]

---

(١) وذلك لأن أهل الله تعالى وخاصته – جعلنى الله والقارئين منهم – يرون الله عند كل شىء، وقبل كل شىء، وبعد كل شىء، فهم فى مقام المشاهدة.

(٢) وقد قال سيدنا يعقوب – عليه السلام – لما عتبوا عليه فقالوا: ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]، فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦]، فدل أن عندهم من العلم من عند الله ما يجعله يصبر لفراقه وينتظر لقاءه.

(٣) البيتان من بحر الطويل، ووزنه (فعولن مفاعلين فعولن مفاعلن) مرتين.

مثل ذلك لو أن إنساناً فى بيت مظلم فَضُرِبَ بشىء وهو لا يدرى مَنْ الضارب له، فلما أدخل عليه المصباح نظر فإذا هو شيخه أو أميره؛ فإن علمه بذلك مما يوجب صبره على ما هنالك.

الثانى وهو قوله:

إنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام، إذا أراد الله بعبده حكماً وفتح له باب الفهم عنه فى ذلك الحكم[١] فاعلم أنه أراد سبحانه أن يحمله عنه، وذلك أن الفهم يرجعك إلى الله ويحبسك[٢] إليه ويجعلك متوكلاً عليه، وقد قال سبحانه: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق:٣] أى كافيه وواقيه وناصره من الأغيار وراعيه، ولأن الفهم عن الله يكشف لك عن سر العبودية فيك، وقد قال سبحانه: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾** [الزمر:٣٦] وكل هذه الوجوه العشرة مرجعها إلى الفهم وإنما هى أنواع فيه[٣].

الثالث:

وهو إنما يقويهم على حمل البلايا واردات العطايا، وذلك لأن وارِدَات العطايا السابقة من الله إليك بذكرك لها مما يعينك على حمل أحكام الله؛ إذ كما قضى لك بما تحب اصبر له على ما يحب فيك، ألم تسمع قوله تعالى: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾** [آل عمران:١٦٥] فسلاهم الحق فيما أصيبوا بما أصابوا. هذا فى العطايا السابقة وقد يقترن بالبلايا فى حين ورودها ما يخففها على

---

(١) وكان من دعاء سيدنا إبراهيم الدسوقى – رضى الله عنه: "اللهم فهمنى عنك، فإنى بغيرك لا أفهم".

(٢) يعنى: يحبسه عما هو منك إلى ما هو منه، وعن اختيارك وضجرك وإعراضك إلى ما هو منه من الرضا والاستسلام والركون إليه، وأن يكون هو حسبك فى أمورك كلها.

(٣) فهى متفقة من حيث معنى الفهم مختلفة باعتبار نوع الفهم، فهى متحدة ذاتاً، مختلفة اعتباراً.

العباد المقربين من ذلك أن يكشف لهم عن عظم الأجر الذى ادخره لهم[١] فى تلك البلية، ومنها ما ينزله على قلوبهم من التثبيت والسكينة، ومنها ما يورده عليهم من رقائق اللطف وتنزلات المنن حتى كان بعض الصحابة يقول فى مرضه: أُشدد حنقك[٢]. وحتى قال بعض العارفين: لقد مرضتُ مرضةً فأحببت أن لا تزول لما ورد فيها من إمداد الله وانكشف فيها من وجود غيبه[٣]. وللكلام فى سبب ذلك موضع غير هذا.

الرابع:

وهو إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره؛ وذلك أن العبد إذا شهد حسن اختيار الله علم أن الحق لا يقصد ألم عبده لأنه به رحيم، **﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾** [الأحزاب:٤٣]، وقد رأى رسول الله ﷺ امرأة معها ولدها فقال: «**أترون هذه طارحةً ولدها فى النار؟** قالوا: لا يا رسول الله، فقال ﷺ: **الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها**» غير أنه يقضى عليك بالآلام لما يترتب عليه من الفضل والإنعام، ألم تسمع قوله سبحانه: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر:١٠] ولو وكل الحق سبحانه العباد إلى اختيارهم لَحُرِمُوا وجود مننه ومنعوا الدخول إلى جنته، فله الحمد على حسن الاختيار[٤]، ألم تسمع قوله سبحانه:

---

(١) فى المخطوط (إليهم)، والصحيح (لهم) كما أثبته.

(٢) الحنق: أصله فى اللغة الغيظ، وهو محال فى جانب الله، فمعناه هنا ابتلاؤك، وفى نسخة مطبوعة بعد (حنقك): وهو خطاب لعزرائيل، فيكون ذلك فى مرض موته.

(٣) بل لقد كان من أمر بعض أوليائه أنه كان إذا علم بمرض أحد إخوانه يزوره فيدعو الله أن ينزل ما به من المرض بجسده هو، فيظل هو راقداً فى سريره الأيام حتى يشفيه الله. لكن هذا مقام لا يقوى عليه إلاّ من وفقه الله لذلك، وأذكر أن القطب الشعرانى قال: والعافية أولى.

(٤) وفى الحديث: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»، فما يكون مكروهاً لنا فى الدنيا يكون سبباً فى دخول الجنة فى الآخرة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية.

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، وإن الأب الشفيق يسوق لابنه الحَجَّام لا لقصد الإيلام، وكالطبيب الناصح يعاينك بالمراهم الحادة وإن كانت مؤلمةً لك، ولو طاوع اختيارك لَبَعُدَ الشفاء عليك، ومن مُنِعَ وعلم أن المنع إنما هو إشفاق عليه فهذا المنع فى حقه عطاء، وكالأم المشفقة تمنع ولدها كثرة المأكل خشية التُّخَمَة، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن - رضى الله عنه: اعلم أن الحق سبحانه لم يمنعك عن بخلٍ وإنما منعك رحمةً لك، فَمَنْعُ الله عطاءٌ ولكن لا يفهم العطاء فى المنع إلا صديق، وفى كلامٍ أثبتناه فى غير هذا الكتاب: لَيُخَفِّفُ[1] عنك ألم البلاء علمك بأنه سبحانه هو المبتلى لك، فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى له فيك حسن الاختيار.

الخامس:

وهو قوله: إنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه؛ وذلك أن علم العبد بأن الحق سبحانه مطَّلِعٌ عليه فيما أبلاه يخفف عنه إعياء[2] البلايا، ألم تسمع قوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]؛ أى: ما تلقاه يا محمد من كفار قريش من المعاندة والتكذيب فليس بخافٍ عنا. الحكاية المشهورة أن إنساناً ضُرِبَ تسعة وتسعين سوطاً ولم يتأوَّه، فلما ضرب السوط الذى هو كمال المائة تأوَّه فقيل له فى ذلك فقال: كان الذى ضُرِبتُ من أجله فى الحلقة فى التسعة والتسعين، فلما ولَّى أحسستُ الألمَ[3].

---

(١) بلام التوكيد؛ أى: إن الذى يخفف عنك...

(٢) أى: المشقة والعناء الحاصل منها.

(٣) وقد قال القائل يصف مثل هذا الحال:

عزيزٌ بكم صبٌّ ذليلٌ لحبكم * ومشهور أوصاف المحبِّ التذلُّل

السادس:

وهو قوله: إنما صبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود جماله، وذلك أن الحق سبحانه إذا تجلى على عبده فى حين ملاقاته لِمُرِّ البلايا حمل مرارتها عنه لِمَا أذاقه من حلاوة التجلى، فربما غلبهم ذلك عن الإحساس بالآلام، ويكفيك فى ذلك: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١][(١)].

السابع:

وهو إنما صبرهم على القضاء علمهم أن الصبر يورث الرضا؛ وذلك أن من صبر على أحكام الله أورثه ذلك الرضا من الله، فتحملوا مرارتها طلباً فى رضاه كما يُتَحَسَّى[(٢)] الدواء المر لما يرجى فيه من عاقبة الشفاء.

الثامن:

وهو إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار[(٣)]؛ وذلك أن الحق سبحانه إذا أراد أن يحمل عن عبده ما يورده عليه كشف الحجاب عن بصيرة قلبه فأراه قربه منه فغيبه أنس القرب عن إدراك المؤلمات، ولو أن الحق سبحانه تجلى لأهل النار بجماله وكماله لغيبهم ذلك عن إدراك العذاب كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة لما طاب لهم النعيم، فالعذاب إنما هو وجود الحجاب؛ وأنواع العذاب مظاهره، والنعيم إنما هو بالظهور والتجلى وأنواع النعيم مظاهره.

---

(١) فلم يشعرن بالألم من تقطيع السكين لجمال ما لاقين من جمال يوسف – عليه السلام.

(٢) أى: يشرب للتداوى به.

(٣) كشف الحجب والأستار: بمعرفة ما يكون إلية المآل، ومعرفة حقيقة البلاء الواقع، وأن باطنه منحة من الله يعلو بها قدر المبتلى ويترقى فى الدرجات وتكفر بها عنه السيئات، وربما شاهد من الرؤى التى تبصره بذلك فيزداد صبراً، وربما كاشفه ربه بذلك فعاين من عالم المثال ما يحمله على الصبر فى بلائه.

التاسع:

وهو قوله: إنما قواهم على حمل أثقال التكليف ورود أسرار التعريف[١]؛ وذلك لأن التكاليف شاقة على العباد، ويدخل فى ذلك امتثال الأوامر والانكفاف عن الزواجر والصبر على الأحكام، والشكر عند وجود الإنعام، فهى إذاً أربعة: طاعة، ومعصية، ونعمة، وبلية، وهى أربع لا خامس لها، ولله عليك فى كل واحدة من هذه الأربع عبودية يقتضيها منك بحكم الربوبية، فحقه عليك فى الطاعة شهود المنة منهُ عليك فيها، وحقه عليك فى المعصية الاستغفار مما صنعت فيها، وحقه عليك فى البلية الصبر معه عليها، وحقه عليك فى النعمة وجود الشكر منك فيها، ويخفف عليك حمل أعباء ذلك كله الفهم، فإذا فهمت أن الطاعة راجعة إليك وعائدة بالجدوى[٢] عليك صَبَّرك ذلك على القيام بها، وإذا علمت أن الإصرار على المعصية والدخول فيها يوجب العقوبة من الله آجلاً وانكشاف نور الإيمان عاجلاً كان ذلك سبباً للترك منك لها، وإذا علمت أن الصبر يعود عليك ثمرته وينعطف عليك بركته سارعت إليه وعوّلت عليه، وإذا علمت أن الشكر يتضمن المزيد من الله لقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] كان ذلك سبباً لمثابرتك عليه ونهوضك إليه، وسنبسط الكلام على هذه الأربعة فى آخر الكتاب ونفرد لها فصلاً – إن شاء الله تعالى.

العاشر:

وهو إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره، وذلك أن المكاره أودع الحق فيها وجود الألطاف، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن

---

(١) فعرفهم أن هذه التكاليف حق من الله على العباد، وأن الله مستحق لها لكمال ربوبيته، وأن العباد مهما فعلوا من طاعةٍ فلن يوفوا الله تعالى شكره، فتحملوا حينئذٍ هذه التكاليف وهانت عليهم، بل وجدوا سعادتهم فيها.

(٢) أى: بالفائدة، وهى ثمرتها من السعادة فى الدارين، ودخول الجنة، ورضا الله تعالى، والبركة فى النفس والمال والولد، وصلاح أمر الدنيا بها...

تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقوله ﷺ: «**حُفَتْ الجنـة بالمكـاره، وحفت النار بالشهوات**» وفى البلايا والأسقام والفاقات[١] من أسرار اللطف مـا لا يفهمه إلا أولو البصائر، ألم تر أن البلايا تخمد النفس وتذلها وتدهشها عن مطلـب حظوظها، ويقع مع البلايا وجود الذلة ومع الذلة تكون النصرة ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّـهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ [آل عمران:١٢٣][٢] وبسط القول فى ذلك يخرجنـا عـن قصـد الكتاب.

---

(١) الفاقات: جمع فاقة بمعنى الحاجة والفقر.

(٢) وقد كان بعض كبار الأولياء يأمره المريد الذى يطلب تزكية نفسه وإصلاحها – وقد جـاءه غنياً ذا جاهٍ فى قومه – أمره أن يحلق ذقنه ويترك لبس الثياب المترفة؛ ليزول بذلك حظه مـن الكبر والاستعلاء والشعور بالتميز، حتى إذا قويت نفسه وتعلم التواضع وحصل لـه الانكسـار ورأى نفسه واحداً عاديًا من جملة البشر لم يضره إطلاق لحيته ولبسه الثياب الفاخرة.

انعطاف

لنرجع الآن إلى الآية وهى قوله سبحانه: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾** [النساء:٦٥].

اعلم أن الأوقات ثلاثة: قبل الحُكْم، وفيه، وبعده، فأما قبل الحكم فبعبوديتهم التحكيم، وأما فى الحكم وبعده فبعبوديتهم عدم وجدان الحرج لأنه[١] ليس كل حكم فُقِدَ الحرج منه؛ أى: قد يُحَكِّم ظاهراً والكراهة عنده موجودة، فلابد أن ينضم إلى التحكيم فقدان الحرج.

قال له القائل: إذا لم يجدوا الحرج فقد سلموا تسليماً، فما فائدة الإتيان بقوله: **﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾** بعد نفى الحرج المستلزم لثبوت التسليم الذى هو من صفته وجود التأكيد؟

فالجواب عنه: أن قوله تعالى: **﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾** فى جميع أمورهم، فإن قلت: إن ذلك لازم من قوله تعالى: **﴿حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ﴾**.

فالجواب: أن التحكيم ما أطلقه بل قيده بقوله: **﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾** فصارت الآية تتضمن ثلاثة أمور:

منها: التحكيم فيما اختلفوا فيه.

الثانى: عدم وجودان الحرج فى التحكيم.

الثالث: وجود التسليم المطلق فيما شجر بينهم وفيما نزل بهم فى أنفسهم، فهو عام بعد خاص[٢]، فافهم الآن.

---

(١) فى المخطوط (إذ ولأنه)، والمثبت الصحيح.

(٢) وذكر العام بعد الخاص هو من غايات البلاغة والتبيان، وفيه من الفائدة هنا ما هو بمكان.

الثانية هى قوله: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [القصص:٦٨] تتضمن فوائد:

الفائدة الأولى:

قوله: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء﴾** يتضمن ذلك إلزاماً للعبد بترك التدبير مع الله لأنه إذا كان يخلق ما يشاء فهو يدبر ما يشاء، فمن لا خلق له لا تدبير له **﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل:١٧]، ويتضمن قوله: **﴿وَيَخْتَارُ﴾** انفراده بالاختيار، وأن أفعاله ليست على نعت الإلجاء والاضطرار، بل على نعت الإرادة والاختيار، وفى ذلك إلزام للعبد بإسقاط التدبير والاختيار مع الله؛ إذ ما هو له لا ينبغى أن يكون لك، وقوله: **﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾** يحتمل وجهين:

أحدهما: لا ينبغى أن تكون الخيرة لهم، وأن يكونوا أولى بها منه سبحانه[1].

الثانى: ما كان لهم الخيرة؛ أى: ما أعطيناهم ذلك ولا جعلناهم أولى بما هنالك[2].

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** أى: تنزيهاً لله أن يكون لهم الخيرة معه، وبينت الآية أن من ادعى الاختيار مع الله فهو مشرك مدعٍ للربوبية بلسان حاله، وإن تبرأ من ذلك بمقاله.

---

(١) أى: ينفى صلاحيتهم لذلك من الأصل.

(٢) أى: لا يصلح لهم هذا، وإن كان ذلك داخلاً تحت حيز الإمكان.

الآية الثالثة: وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم:٢٤، ٢٥] فيها دلالة على إسقاط التدبير مع الله، ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أى لا ينبغى أيضاً أن يكون له إلا ما جعلناه له، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ ففى ذلك إلزام العبد بترك التدبير مع الله تعالى، أى إذا كان لله الآخرة والأولى وليس للإنسان فيهما شىء فلا ينبغى أن يدبر الإنسان فى ملك غيره، وإنما ينبغى أن يدبر فى الدارين مالكُهما وهو الله سبحانه.

وقوله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً**» يتضمن الحديث فوائد:

الأولى: قوله عليه السلام: «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً**» فيه دليل على أن من لم يكن كذلك لا يجد حلاوة الإيمان ولا يدرك مذاقه، وإنما يكون إيمانه صورةً لا روح لها، وظاهراً لا باطن له، ومرتسماً لا حقيقة تحته[1]، وفيه إشارة إلى أن القلوب السليمة[2] من أمراض الغفلة والهوى تنعم بملذوذات المعانى كما تنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً لأنه لما رضى بالله رباً استسلم له، وانقاد لحكمه، وألقى قياده إليه خارجاً عن تدبيره واختياره إلى حسن تدبير الله واختياره، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض، ولما رضى بالله كان له الرضا من الله كما قال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة:٨] وإذا كان له الرضا من الله أوجده الله حلاوة ذلك ليعلم ما مَنَّ به عليه، وليعرف إحسان الله إليه، ولا يكون الرضا بالله إلا مع الفهم، ولا يكون الفهم إلا مع

---

(١) وأمثال هؤلاء من يقولون عند وقوع البلاء بهم: (لماذا يا رب؟) وأشباه ذلك، والله سبحانه لا ينبغى أبداً أن يسأله أحد وهو يسأل كل أحد. وذوق طعم الإيمان: أن يستشعر الطمأنينة والسكينة ولو مع نزول البلاء ويرتاح لقضاء الله به، فالإيمان أمن وأمان وطمأنينة وسكينة ووقار فى القلب والبدن...

(٢) السليمة: أى الخالية، وهى من أسماء الأضداد، فتستعمل بمعنى الخالى عن العلة، وبمعنى ملازمة العلة.

النور، ولا يكون النور إلا مع الدنو، ولا يكون الدنو إلا مع العناية، فلما سبقت لهذا العبد العناية خرجت له العطايا من خزائن المنن، فلما واصلته أمداد الله وأنواره عوفى قلبه من الأمراض والأسقام فكان سليم الإدراك، فأدرك لذاذة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه ولسلامة ذوقه، ولو سقم قلبه بالغفلة عن الله لم يدرك ذلك؛ لأن المحموم[١] ربما وجد طعم السكر مراً وليس هو فى نفس الأمر كذلك، فإذا زالت أسقام القلوب أدركت الأشياء على ما هى عليه، فتدرك حلاوة الإيمان ولذاذة الطاعة ومرارة القطيعة والمخالفة، فيوجب إدراكها لحلاوة الإيمان اغتباطها به وشهود المنة من الله عليها فيه، وتطلب الأسباب الحافظة للإيمان والجالبة له، ويوجب إدراك لذاذة الطاعة المداومة عليها وشهود المنة من الله فيها، ويوجب إدراكها لمرارة الكفران[٢]، ولمخالفة الترك لهما والنفور عنهما وعدم الميل إليهما، فيكمل الترك للذنب وعدم التطلع[٣]، وليس كل تارك نافراً للذنب[٤]،ولا كل تارك غير متطلع، وإنما كان ذلك لأن نور البصيرة دلَّه على أن المخالفة لله والغفلة عنه سُمٌّ للقلوب مهلكٌ، فنفرت قلوب المؤمنين عن مخالفة الله نفرتك عن الطعام المسموم، وقوله ﷺ: «**وبالإسلام ديناً**» لأنه إذا رضى بالإسلام ديناً فقد رضى بما رضى به المولى واختياره لقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ**﴾ [آل عمران:١٩]، ولقوله: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران:٨٥]، ولقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة:١٣٢]، فَمِنْ لازمِ ذلك امتثال أوامره والانكفاف عند وجود زواجره، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

---

(١) المحموم: من نزلت به الحُمَّى والمرض.

(٢) كما فى الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين، وحتى يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار».

(٣) أى: عدم التطلع إلى فعله واجتنائه.

(٤) فقد يترك الإنسان الذنب ولم يمنع نفسه من حب فعله واقترافه، وكمال الأمر أن يمنع نفسه ويدربها على عدم التطلع لفعله والرغبة فيه.

والغيرة إذا رأى مُلْحِداً يحاول أن يُدخل فيه ما ليس منه فيدمغه ببرهانـه، ويقمعـه بإيمانه[١]، وقوله ﷺ: «**وبمحمد نبيا**» فلازمُ مَنْ رضى بمحمد نبياً أن يكون له ولياً وأن يتأدب بآدابه، وأن يتخلق بأخلاقه زهداً فى الدنيا وخروجاً عنها وصفحاً عـن الجناة، وعفواً عمن أساء إليه إلى غير ذلك من تحقيق المبايعة قولاً وفعلاً، وأخـذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، وظاهراً وباطناً فمن رضى بالله استسلم لـه، ومـن رضـى بالإسلام عمل له، ومن رضى بمحمد ﷺ تابعه، ولا يكون واحد منها إلا بكلهـا؛ إذ محال أن يرضى بالله ربا ولا يرضى بالإسلام ديناً، أو يرضى بالإسلام دينـاً ولا يرضى بمحمد نبياً، وتلازم ذلك بَيِّنٌ لاخفاء فيه.

---

(١) ففى الرضا بالإسلام دينا الرضا بالإسلام شريعةً ومنهجاً وحكماً جملةً وتفصيلاً.

مقامات اليقين

وإذ قد تبين هذا فاعلم أن مقامات اليقين تسعة وهـي: التوبـة، والزهـد، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمحبة، والرضا. ولا يصح واحد من هذه المقامات إلا بإسقاط التدبير مع الله والاختيار، وذلك أن التائب كما يجـب عليه أن يتوب من ذنبه يجب عليه أن يتوب من التدبير مـع ربـه؛ لأن التـدبير والاختيار من كبائر ذنوب القلوب.

والتوبة هى الرجوع إلى الله من كل شيء لا يرضاه لك، والتدبير لا يرضاه لك لأنه شرك للربوبية، وكفر لنعمة العقل[1]، ولا يرضى لعباده الكفر، وكيف تصح توبة عبدٍ مهمومٍ بتدبير دنياه وغافل عن حسن رعاية مولاه!

كذلك لا يصح الزهد إلا بالخروج عن التدبير؛ لأن ممـا أنـت مخاطـبٌ بالخروج عنه والزهد فيه تدبيرك؛ إذ الزهد زهدان: زهد ظاهر جلى، وزهد باطن خفى، فالظاهر الجلى: الزهد فى فضول الحلال من المأكولات والملبوسات وغيـر ذلك، والزهد الخفى: الزهد فى الرئاسة وحب الظهور[2]، ومنه الزهد فى التدبير مع الله.

وكذلك لا يصح صبر ولا شكر إلا بإسقاط التدبير؛ وذلك أن الصابر مَـنْ صبر عما لا يحبه الله، ومما لا يحبه الله التدبير معه والاختيار؛ لأن الصبر علـى أقسام: صبر عن المحرمات، وصبر على الواجبـات، وصـبر عـن التـدبيرات والاختيارات.

---

(١) لأن العقل جُعِل لنعرف به صفات كمال قدرة الله وتدبيره لا لندبِّر معه سبحانه وتعالى.

(٢) وكان خفياً لأن الإنسان قد يعمل فى ظاهر أمره الطاعات ويتقدم فى العويصات من الأمـور ويُظن به أنه مخلص فى ذلك إلا أنه يفعل ذلك لحبه الرئاسة للناس والظهـور علـيهم والعلـو فوقهم، وليس يطلع على ذلك إلا الله تعالى أو من كشف الله له ذلك من عباده.

وإن شئت قلت: صبر عن حظوظ البشرية، وصبر على لوازم العبودية[١]، ومن لوازم العبودية إسقاط التدبير مع الله.

وكذلك لا يصح الشكر إلا لعبدٍ ترك التدبيرَ مع الله تعالى؛ لأن الشكر كما قال الجنيد[٢] – رضى الله عنه: الشكر أن لا يُعْصَى الله بنعمه، ولولا العقل الذى ميزك به على أشكالك وجعله سبباً لكمالك لم تكن من المدبرين معه؛ إذ الجمادات والحيوانات لا تدبير لها مع الله لفقدان العقل الذى من شأنه النظر إلى العواقب والاهتمام بها، ويناقض أيضاً مقام الخوف والرجاء؛ إذ الخوف إذا توجهت سطواته إلى القلوب منعها أن تستروح إلى وجود التدبير، والرجاء أيضاً كذلك؛ إذ الراجى قد امتلأ قلبه فرحاً بالله ووقته مشغول بمعاملة الله، فأى وقتٍ يسعه التدبير مع الله؟! ويناقض أيضاً مقام التوكل، وذلك أن المتوكل على الله من ألقى قياده إليه واعتمد فى كل الأمور عليه، فمنْ لَازِمِ ذلك عدم التدبير والاستسلامِ لجريان المقادير، وتعلق إسقاط التدبير بمقام التوكل والرضا أبين من تعلقه بسائر المقامات، ويناقض أيضاً مقام المحبة؛ إذ المحب مستغرقٌ فى حب محبوبه، وترك الإرادة معه هى عين مطلوبه[٣]، وليس يتسع وقت المحب للتدبير مع الله؛ لأنه قد شغله عن ذلك حبه لله.

---

(١) فى المخطوط (العبوديات).

(٢) الإمام الجنيد: سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجَّاج، كان أبوه يبيع الزجاج، أصله من "نهاوند"، مولده ومنشؤه بالعراق، وكان فقيهاً يفتى الناس على مذهب أبى ثورٍ صاحب الإمام الشافعى – رضى الله عنهم – صحب خاله السرىّ والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب، وكان من كبار أئمة القوم وسادتهم، وكلامه مقبول على جميع الألسنة، مات – رضى الله عنه – يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين، وقبره ببغداد ظاهر يزوره الخاص والعام. ومن كلامه: إن الله يخلص إلى القلوب من برِّه على حسْب ما تخلص إليه القلوب من ذكره، فانظر ماذا خالط قلبك. وكان يقول: التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله الصرف عن الدنيا كما قال حارثة – رضى الله عنه: صرفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى. الطبقات الكبرى (جـ١ صـ١٤٥: صـ١٤٩).

(٣) وذلك هو حال المحب الحقيقى كما قال القائل:=

وكذلك قال بعضهم: من ذاق شيئاً من خالص محبة الله ألهاه ذلك عما سواه، ويناقض أيضاً مقام الرضا وهو بَيِّنٌ لا إشكال فيه؛ وذلك لأن الراضى قد اكتفى بتدبير الله، فكيف يدبر معه وهو قد رضى بتدبيره؟! ألم تعلم أنْ نور الرضا يغسل من القلوب غُثَاء[1] التدبير؟ فالراضى عن الله بسطه نور الرضا لأحكام الله فليس له تدبير مع الله، وكفى بالعبد حسن اختيار سيده له فافهم.

لو كان حبك صادقاً لأطعتهُ * إن المحبَّ لمن يحب مطيعُ

(١) الغُثَاء: أصله الزَّبَد والهالك والبالى من ورق الشجر المخالط زبد السيل. وشبَّه هنا التدبير مع الله ببعض ذلك أو كله. "القاموس المحيط" مع زيادة شرحٍ.

فصل

اعلم أن الذى يحملك على إسقاط التدبير مع الله والاختيار أمورٌ:

الأول:

علمك بسابق تدبير الله فيك، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك[١]، فكما كان لك مدبراً قبل أن تكون ولا شىء من تدبيرك معه كذلك هو سبحانه بعد وجودك، فكن له كما كنت له يكن لك كما كان لك.

وكذلك قال أبو الحسين الحلاَّج[٢]: كن لى كما كنتَ لى فى حين لم أكن. فسأل من الله أن يكون له بالتدبير بعد وجوده كما كان له بالتدبير قبل وجوده؛ لأنه

---

(١) وذلك قبل أن نخرج إلى الدنيا ونحن فى أرحام الأمهات لا نعلم شيئاً، ولم يكتمل لنا عقلٌ فندبر به مع خالقنا – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – فننتقل من طورٍ إلى طورٍ ومن خلقٍ إلى خلقٍ آخر ونحن بين يدى مليكٍ مقتدر مدبر بيده كل شىء.

(٢) سيدى أبو الحسين الحلاج: وهو من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق، صحب الجنيد والنورى وعمرو بن عثمان المكى والفوطى وغيرهم – رضى الله عنهم أجمعين – والمشايخ فى أمره مختلفون، رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف، وقبله بعضهم، منهم أبو العباس بن عطاء ومحمد بن حنيف وأبو القاسم النصرآباذى، وأثنوا عليه، وصححوا حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين، وقد أشار القشيرى إلى تزكيته حيث ذكر عقيدته مع عقيدة أهل السنة أول الكتاب فتحاً لباب حسن الظن به، ثم ذكره فى آخر الكتاب لأجل ما قيل فيه. ومن كلامه: حجبهم بالاسم فعاشوا، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا. وكان يقول: أسماء الله من حيث الإدراك اسم، ومن حيث الحق حقيقة. وسئل عن المريد فقال: هو الرامى بأول قصده إلى الله تعالى فلا يعرج حتى يصل. وسئل عن التصوف وهو مصلوبٌ، فقال للسائل: أهونه ما ترى. وكان يقول: ومن لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له، ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال. وفى تاريخ ابن خلكان ما نصه: قتل الحسين الحلاج ولم يثبت عليه ما يوجب القتل – رضى الله عنه. الطبقات الكبرى – لسيدى الشعرانى – (جـ١ صـ١٨٥: صـ١٨٧).

قبل وجود العبد كان مُدَبَّراً بعلم الله وليس هناك للعبد وجودٌ فتقع الدعوى منه لتدبير نفسه فيقع الخذلان لأجل ذلك، فإن قلت: فإنه فى حين لم يكن عَدَمٌ فكيف يتعلق التدبير به؟[١].

فاعلم أن للأشياء وجوداً فى علم الله وإن لم يكن لها وجود فى أعيانها، فالحق سبحانه يتولى تدبيرها من حيث إنها موجودة فى علمه، وفى هذه المسألة غور عظيم ليس هذا الموضع محلاً لبسطه.

---

(١) نعم هو عَدَمٌ فى حكم البشر فى عالم المحسوس لكنه وجودٌ فى علم الله وحكمه من يوم "ألست بربكم" إلى أن يكون ماءً فى صلب أبيه إلى أن يكون جنيناً فى رحم أمه إلى أن يخرج إلى الدنيا... فكل ذلك وجود فى علم الله تعالى، والله أعلم.

بيان وإعلام

اعلم أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك، وقام لك فى كل ذلك بوجود إبرارك، فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير، يوم ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢] ومن حسن تدبيره بك حينئذ أن عرفك به فعرفته، وتجلى لك فشهدته، واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته فوحَّدته، ثم إنه جعلك نطفةً مستودعةً فى الأصلاب، وتولاك بتدبيره هنالك حافظاً لك وحافظاً لما أنت فيه، مواصلاً لك المدد بواسطة من أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم، ثم قذفك فى رحم الأم فتولاك بحسن تدبيره حينئذ، وجعل الرحم لك أرضاً يكون فيها نباتك، ومستودعاً تعطى فيه حياتك، ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت عنهما لما ثبتت عليه الحكمة الإلهية من أنْ الوجود كله مبنى على سر الازدواج، ثم جعلك بعد النطفة علقةً مهيأةً لما يريد الله سبحانه أن ينقلها إليه، ثم بعد العلقة مضغة، ثم فتق سبحانه فى المضغة صورتك وأقام بنيتك، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك، ثم غذاك بدم الحيض فى رحم الأم فأجرى عليك رزقه قبل أن يخرجك إلى الوجود، ثم أبقاك فى رحم الأم حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك، وليبرزك إلى دارٍ يتعرف فيها بفضله وعدله إليك[1]، ثم لما أنزلك إلى الأرض لما علم سبحانه أنك لا تستطيع تناول خشونات المطاعم، وليس لك أسنان ولا أرحاء[2] تستعين بها على ما أنت طاعم، فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف، ووكل بهما مستحث

---

(١) فإن ما يصير إلى العبد من ربه إما أن يكون فضلاً منه وكرماً، وإما أن يكون عدلاً بإزاء شيء، فمن أكرمه الله فبفضله، ومن عاقبه فى الدنيا أو الآخرة فبعدله، فاللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان.

(٢) فى المخطوط (أرجاء) بالجيم المعجمة، والظاهر أن الصحيح (أرحاء) بالحاء المهملة جمع رحى، وهو ما يُطحن به الطعام.

الرحمة فى قلب الأم، كلما وقف اللبن عن البروز استحثته الرحمة التى جعلها لك فى الأم مستحثاً لا يفتر ومستنهضاً لا يقصر، ثم إنه شغل الأب والأم بتحصيل مصالحك، والرأفة عليك، والنظر بعين المودة منهما إليك، وما هى إلا رأفته ساقها للعباد فى مظاهر الآباء والأمهات تعريفاً بالوداد(١)، وفى حقيقة الأمر ما كفلك إلا ربوبيته، وما خصتك إلا إلاهيته، ثم ألزم الأب القيام بك إلى حين البلوغ، وأوجب عليه ذلك رأفةً منه بك، ثم رفع قلم التكليف عنك إلى أوان أن تكمل الأفهام، وذلك عند الاحتلام، ثم إلى أن صرت كَهْلاً لم يقطع عنك نوالاً ولا فضلا، ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة، ثم إذا قدمت عليه، ثم إذا حشرت إليه، ثم إذا أقامك بين يديه، ثم إذا سلَّمك من عقابه، ثم إذا أدخلك دار ثوابه، ثم إذا كشف عنك وجود حجابه، ثم أجلسك فى مجالس أوليائه وأحبائه.

قال سبحانه: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾** [القمر:٥٤، ٥٥]، فلأى إحسانه تشكر؟! أو أى آلائه وأياديه تذكر؟! واسمع قوله سبحانه: **﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾** [النحل:٥٣] تعلم أنك لم تخرج ولن تخرج عن إحسانه، ولن يعدوك وجود فضله وامتنانه، وإن أردت البيان فى تنقلات أطوارك فاسمع ما قاله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾** [المؤمنون:١٢-١٦] تبدو لك بوارقها، وتبسط لك شوارقها، وفى ذلك ما يلزمُكَ أيها العبد الاستسلامَ إليه والتوكلَ عليه، ويضطرك إلى ذلك إسقاطُ التدبيرِ وعدم منازعة المقادير، والله الموفق.

---

(١) ودليل ذلك من الحديث قوله ﷺ: «إن الله جعل الرحمة مائة جزء، جعل جزءاً منها فى الدنيا وتسعة وتسعين جزءاً فى الآخرة» الحديث بمعناه. وورد فى الحديث: أن من ذلك أن ترفع الدابة حافرها عن وليدها خشية أن تصيبه.

الثانى:

اعلم أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها، فإن المؤمن قد علم أنه إذا ترك التدبير مع الله كان له بحسن التدبير منه له لقوله: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق:٣]، فصار التدبير فى إسقاط التدبير، والنظر للنفس ترك النظر لها[١]، وافهم هاهنا قوله سبحانه: **﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾** [البقرة:١٨٩] فباب التدبير من الله لك إسقاط التدبير منك لنفسك.

الثالث:

علمك بأن القدر يجرى على حسب تدبيرك، بل أكثر ما يكون مالا تدبِّر، وأقل ما يكون ما أنت له مدبِّر، والعاقل لا يبنى بناءً على غير قرارٍ، فمتى تتم مبانيك والأقدار تهدها وعن التمام تصدها.

شعرٌ

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه * إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم[٢]

وإذا كان التدبير منك والقدر يجرى على خلاف ما تُدَبِّر فما فائدة تدبير لا تنصره الأقدار؟ وإنما ينبغى أن يكون التدبير لمن بيده أزِمَّة[٣] المقادير، ولذلك قيل:

ولما رأيت القضا جارياً * بلا شكٍ فيه ولا مرية

توكلت حقاً على خالقى * وألقيت نفسى مع الجرية[٤]

الرابع:

علمك بأن الله هو المتولى لتدبير مملكته علوها وسفلها غيبها وشهادتها، وكما سلمت له تدبيره فى عرشه، وكرسيه وسماواته وأرضه فسلم له تدبيره فى

---

(١) النظر إلى النفس: أى إرادة الرعاية والخير وحصول المنافع لها.

(٢) البيت من بحر الطويل، ووزنه (فعولن مفاعلين فعولن مفاعلن) مرتين.

(٣) الأزِمَّة: جمع زِمَام.

(٤) البيتان من بحر المتقارب.

وجودك، فإن نسبة وجودك إلى هذه العوالم نسبة توجب تلاشيك كما أن نسبة السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إلى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض، والكرسى والسماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض، فماذا عسى أن تكون فى مملكته؟ فاهتمامُكَ بأمر نفسك وتدبيرك لها جَهْلٌ منك بالله، بل الأمر كما قال سبحانه: **﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾** [الأنعام: ٩١] فلو أن العبد عرف ربه لاستحيا أن يدبر معه، ولا قذف بك فى بحر التدبير إلا حَجَبَتُكَ[١] عن الله؛ لأن الموقنين لما كُشِفَ عن بصائر قلوبهم شهدوا أنفسهم مُدَبَّرين لا مُدبِّرين، ومصرَّفين لا متصرِّفين ومحرَّكين لا متحركين، وكذلك عمَّار الصَّفْح الأعلى[٢] مشاهدون ظهور القدرة، ونفوذ الإرادة، وتعلق القدرة بمقدورها والإرادة بمرادها، والأسباب معزولة فى مشهدهم؛ فلذلك طهروا من الدعوى لما هم عليه من وجود المعاينة وثبوت المواجهة، ولذلك قال سبحانه: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾** [مريم: ٤٠] ففى هذا تزكية للملائكة، وإشارة إلى أنهم لم يكونوا مع الله مدَّعين لما خوَّلهم[٣]، ولا منتسبين لما نسب لهم؛ إذ لو كانوا كذلك لقال: إنا نحن نرث الأرض والسماء، بل نسبهم إليه، وَوَلَّهُهُمْ من عظمته منعهم أن يركنوا لشيء دونه، فكما سلَّمت له تدبيره فى سمائه وأرضه فسلِّمْ له تدبيره فى وجودك **﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾** [غافر: ٥٧].

---

(١) حجبتك: جمع حاجب، أى ما لا يوصلك إلى الله فيقطعك عنه، وحجاب النفس: الشهوات، وحجاب القلب: الملاحظة فى غير الحق، وحجاب العقل: وقوفه مع المعانى المعقولة، وحجاب السر: الوقوف مع الأسرار، وحجاب الروح: المكاشفة، والحجاب الخفى: هو العظمة والكبرياء. انظر "المعجم الصوفى" د/عبد المنعم الحفنى.

(٢) الصَّفْح الأعلى: أى الجانب الأعلى، بمعنى الملأ الأعلى.

(٣) أى: أعطاهم، وجعل أمره من الأشياء إليهم.

الخامس:

علمك أنك ملْكٌ لله وليس تدبِّر ما هو لغيرك، فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره، وإذا كنت أيها العبد لا تنازع فيما تملك ولا ملك لك إلا بتمليكه إياك وليس لك ملك حقيقى وإنما هى نسبة شرعية أوجبت الملك لك من غير شىء قائم بوصفك تستوجب به أن تكون مالكاً فَأَنْ لا تنازع الله فيما يملكه أولى وأحرى، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، فلا ينبغى أن يكون بعد المبايعة تدبير ومنازعة؛ لأن ما بعته وجب عليك تسليمه وعدم المنازعة فيه، فالتدبير فيه نقضٌ لعقدة المبايعة، ودخلت على الشيخ أبى العباس المرسى(١) – رضى الله عنه – يوماً فشكوت إليه بعض أمرى فقال: إذا كانت نفسك لك فاصنع بها ما شئت، ولن تستطيع ذلك أبداً، وإن كانت لبارئها سلِّمْها له يصنع بها ما يشاء، ثم قال: الراحة فى الاستسلام إلى الله، وترك التدبير معه وهو العبودية.

قال ابن أدهم(٢) – رضى الله عنه: نِمتُ ليلةً عن وِردى فاستيقظت فندمت، فنمت بعد ذلك ثلاثة أيام عن الفرائض، فلما استيقظت سمعت هاتفاً يقول:

---

(١) سيدى أبو العباس المرسى: أحمد بن عمر الأنصارى المالكى، قطب الزمان وقدوة الأوان، وعلم الهداية المشار إليه بالولاية، نزل إسكندرية، وكان من أعظم العارفين وأكابر المحققين، ومن كلامه: لى أربعون سنةً ما حجبت عن الله طرفة عين. ومن كلامه أيضاً: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، أو الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواءٌ عليه أظهره أم أخفاه. وقال: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه. وكان شيخاً لسيدى ابن عطاء الله – رضى الله عنهما – وهو الذى تربى على يده، ومات سنة سبع وتسعين وستمائة. انظر "الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية" للإمام المناوى (جـ٢ صـ١٢٠: صـ٢٩).

(٢) سيدى إبراهيم بن أدهم: أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، كان من كورة "بلخ" من أولاد الملوك. من كلامه: من علامة العارف بالله أن يكون أكبر همه الخير والعبادة وأكثر كلامه الثناء والمدحة. انظر "الطبقات الكبرى" (جـ١ صـ١٢: صـ١٢١).

كل شىء لك مغفور سوى الإعراض عنا

قد غفرنا لك ما فات بقى ما فات منا

ثم قيل لى: يا إبراهيم كن عبداً، فكنت عبداً لله فاسترحت.

السادس:

علمك بأنك فى ضيافة الله؛ لأن الدنيا دار الله، وأنت نازل بها عليه، ومن حق الضيف أن لا يعول هماً مع رب المنزل، قيل للشيخ أبى مدين[(١)] – رضى الله عنه: يا سيدى ما لنا نرى المشايخ يدخلون فى الأسباب وأنت لا تدخل فيها؟ قال: يا أخى أنصفونا، الدنيا دار الله، ونحن فيها ضيوفه، وقد قال عليه السلام: «**الضيافة ثلاثة أيام**» قلنا: عند الله ثلاثة أيام ضيافة، وقد قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ**﴾ [الحج:٤٧] قلنا: عند الله تعالى ثلاثة آلاف سنة ضيافة مدة إقامتنا فى الدنيا منها، وهو مكمل ذلك بفضله فى الدار الآخرة، وزائد على ذلك الخلود الدائم.

السابع:

نظر العبد إلى قيومية الله به فى كل شىء، ألم تسمع قوله: ﴿**اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [البقرة:٢٥٥]؟ فهو سبحانه قيوم الدنيا والآخرة، قيوم الدنيا بالرزق والعطاء، والآخرة بالأجر والجزاء، فإذا علم العبد قيومية ربه به وقيامه عليه ألقى قياده إليه، وانطرح بالاستسلام بين يديه، فألقى نفسه بين يدى ربه مسلماً ناظراً ما يرد عليه من الله حكماً.

---

(١) سيدى أبو مَدْين: المغربى، من أعيان مشايخ المغرب وصدور المربين، وشهرته تغنى عن تعريفه، واسمه شعيب، وولده مدين هو المدفون بمصر بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطى، وأما والده فهو مدفون بتلمسان بأرض المغرب فى جبانة العبادلة وقد ناهز الثمانين، وقبره ثَمَّ ظاهر يزار، ومن كلامه: الغيرة أن لا تَعرف ولاتُعرف. انظر "الطبقات الكبرى" (جـ١ صـ٢٦١: صـ٢٦٤).

الثامن:

وهو اشتغال العبد بوظائف العبودية التى هى مغيَّاةٌ[١] بالعمر لقوله: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر:٩٩]، فإذا توجهت همته إلى رعاية عبوديته شغله ذلك عن التدبير لنفسه والاهتمام لها، قال الشيخ أبو الحسن[٢]: اعلم أن لله عليك فى كل وقت سهماً فى العبودية يقتضيه الحق سبحانه منك بحكم الربوبية. انتهى كلامه.

والعبد مطالب بذلك ومسئول عنه وعن أنفاسه التى هى أمانة الحق عنـده فأين الفراغ لأولى البصائر من حقوق الله حتى يمكنهم التدبير لأنفسهم والنظر فـى مصالحها باعتبار حظوظها ومآربها؟ ولا يصل أحد إلى منة الله إلا بغيبته عن نفسه وزهده فيها، مصروفةً همته إلى مَحَابِّ الله متوفرةً دواعيه على موافقته، دائـبٌ[٣] على خدمته ومعاملته، فبحسْب غيبتك عن نفسك فناءً عنها بحسْب ما يبقيك الله به؛ لذلك قال الشيخ أبو الحسن: أيها السابق إلى سبيل نجاته التائق إلى حضرة جنابـه أقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك.

التاسع:

وهو أنك عبدٌ مربوبٌ وحق على العبد أن لا يعول هماً مع المـولى مـع اتصافه بالإفضال وعدم الإهمال، وأن روح مقام العبودية الثقة بالله والاستسلام إلى الله، وكل واحد منها يناقض التدبير مع الله، بل على العبد أن يقوم بخدمته والسـيد يقوم له بمنته، وعلى العبد القيام بالخدمة والسيد يقوم له بوجود النعمة، وافهم قوله تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا**﴾ [طه:١٣٢]؛ أى: قـم بخدمتنا ونحن نقوم لك بإيصال قسمتنا.

---

(١) أى: غايتها ونهايتها مع انتهاء عمر ابن آدم.

(٢) سبقت ترجمته – رضى الله عنه وأرضاه.

(٣) أى: وهو دائبٌ، فهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو).

العاشر:

عدم علمك بعواقب الأمور، فربما دبرت أمراً ظننت أنه لك فكان عليك، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد، والشدائد من وجوه الفوائد، والأضرار من وجوه المَسَارِّ[١]، والمسار من وجوه الأضرار، وربما كَمُنَتْ المنن فى المحن، والمحن فى المنن، وربما انتفعت على أيدى الأعداء، وأوذيت على أيدى الأحباء، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن لعاقلٍ أن يدبر مع الله ولا يدرى المسار فيأتيها، ولا المضار فيتقيها؛ ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما تعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم؟ ويكفيك قول الله سبحانه: **﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾** [البقرة:٢١٦]، وكم مرة أردت أيها العبد أمراً فصرفه عنك فوجدت لذلك غماً فى قلبك وحرجاً فى نفسك حتى إذا كشف لك حقيقة ذلك علمت أن الله سبحانه نظر لك بحسن النظر من حيث لا تدرى وخار[٢] لك من حيث لا تعلم، وما أقبح مريد لا فهم له، وعبد لا استسلام له، فكنت كما قيل:

وكم رمتُ أمراً خِرْت لى فى انصرافه * فلا زلتَ بى منى أبرَّ وأرحما

عزمتُ على أن أحسَّ بخاطرى * على القلب إلا كنت أنت المقدما

وأن لا ترانى عند ما قد نهيتنى * لكونك فى قلبى كبيراً معظما[٣]

ويحكى أن بعضهم كان أى شىء قيل له أنه ابتلى به أو أصيب فيه يقول: خيرةٌ، فاتفق ليلة أن جاء ذئب فأكل ديكاً فقيل له فقال: خيرة، ثم ضُرِبَ فى تلك الليلة كلبه فقتل، فقال: خيرة، ثم نفق حماره فمات، فقال: خيرة، فضاق أهله بكلامه هذا ذرعاً،

---

(١) المسار: جمع مَسَرَّة، وهى ما يوجب الفرح لصاحبه.

(٢) أى: اختار لك.

(٣) الأبيات من بحر الطويل، ووزنه: (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) مرتين.

واتفق أن نزل بهم فى تلك الليلة عرب أغاروا عليهم فقتلوا كل من الحِلَّة[1]، ولـم يسلم غيره وأهل بيته، استدلوا على أهل الحِلَّة بصياح الديكة، ونباح الكلاب، ونهيق الحمير، وهو قد مات له كل ذلك، فكان هلاك ذلك سبباً لنجاته، فسـبحانه المـدبر الحكيم، وأفٍ لعبد لا يشهد حسن تدبير الله إلا إذا انكشفت العواقب، وليس هذا مـن مقام أهل الخصوص فى شيءٍ؛ لأن أهل الفهم عن الله شهدوا حسن تدبير الله قبل أن تنكشف العواقب لهم، وهم فى ذلك على أقسام ومراتب: فمنهم من حَسَّنَ ظنه بـالله فاستسلم له لما عوده من جميل صنعه ووجود لطفه.

ومنهم من حَسَّنَ ظنه بالله علماً منه أن الاهتمام والتدبير والمنازعة لا تدفع عنه ما قدر عليه، ولا تجلب له ما لم يقسم له.

ومنهم من حَسَّنَ الظن بالله لقوله عليه السلام حاكيا عن ربه: «**أنا عند ظن عبدى بى**» فكان متعاطياً بحسن الظن بالله وأسبابه رجاء أن يعامل بمثل ذلك فيكون له عند ظنه، ولقد يسر الله للمؤمنين سبيل المنن إذ كان عند ظنونهم، ﴿**يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة:١٨٥] وأرفع من هذه المراتب كلها الاستسـلام إلى الله والتفويض له لما يستحقه الحق من ذلك لا لأمرٍ يعود علـى العبـد، فـإن المراتب الأُوَلَ لم تخرج عن رِقّ العِلَ؛ إذ مَن استسلم له لحسن عوائده فاستسـلامه معلول بعوائد الألطاف السابقة، فلو لم تكن لم يكن استسلامه.

والثانى أيضاً كذلك، لأن تَرْكَ التدبير مع الله لأنه[2] لا يجدى شيئاً ليس هو تركاً لأجل الله؛ لأن هذا العبد لو علم أن تدبيره يجدى شيئا فلعله كان غير تـارك للتدبير، وأما الذى استسلم إلى الله وحسن ظنه به ليكون له عند ظنه فهو إنما سعى فى حظ نفسه مشفقاً عليها أن يفوتها الفضل بعدوله عن الاستسلام، وَحَسَنُ الظـنّ بالله هو من استسلم إلى الله وأحسَنَ ظنه به لما هو عليه من عظمة الإلهية ونعوت

---

(١) أى: محلتهم ومنزلهم ومجتمعهم.

(٢) لفظ (لأنه) ساقط من المخطوط، وزيادته محتمة لصحة المعنى.

الربوبية، فهذا هو العبد الذى دُلَّ على حقيقة الأمر، وأحرى أن يكون هذا من الدين، قال الرسول ﷺ فيهم: «**إن لله عباداً التسبيحة الواحدة من أحدهم مثل جبل أحد**»، ولقد عاهد الله سبحانه العباد أجمع على إسقاط التدبير بقوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى**﴾ [الأعراف:١٧٢]؛ لأن إقرارهم بأنه ربهم يستلزم ذلك إسقاط التدبير معه، فهذه معاقدة كانت قبل أن تكون النفس التى هى محل الاضطراب المدبرة مع الله، ولو بقى العبد على الحالة الأولى التى هى كشف الغطاء ووجود الحضرة لما أمكنه أن يدبر مع الله، فلما أُسْدِلَ الحجاب وقع التدبير والاضطراب؛ فلأجل ذلك أهل المعرفة بالله المشاهدون لأسرار الملكوت لا تدبير لهم مع الله؛ إذ وجود المواجهة أنالهم ذلك، وفسخ عزائم تدبيرهم، فكيف يدبر مع الله عبد هو فى حضرته ومشاهدٌ لكبرياء عظمته؟

فائدة:

اعلم أن التدبير والاختيار وَبَالُهُ عظيم، وخطره جسيم، وذلك إذا نظرنا فوجدنا أن آدم – عليه السلام – إنما حمله على أكل الشجرة تدبيره لنفسه، وذلك أن الشيطان قال له ولحواء – عليهما السلام – كما قال الله سبحانه: ﴿**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ [الأعراف:٢٠]، ففكر آدم – عليه السلام – فى نفسه فعلم أن الخلود فى جوار الله هو المطلوب الأسنى، وانتقاله من الآدمية إلى وصف الملَكية إما أن يكون إجلالاً لأن وصف الملكية أفضل؛ إذ ظن آدم أن ذلك أفضل، فلما دبر آدم لنفسه[1] هذا التدبير أكل من الشجرة، فما أتى عليه إلا من وجود التدبير، وكان مراد الحق منه ذلك لينزله إلى الأرض وليستخلفه فيها، فكان هبوطاً فى الصورة ورقياً فى المعنى، كما قال الشيخ أبو الحسن: والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه وإنما أنزله

---

(١) فى المخطوط بغير اللام، والمثبت الصحيح.

إلى الأرض ليكمله، فلم يزل آدم – صلوات الله عليه – راقيا إلى الله، تارةً على معراج التقريب والتخصيص، وتارة على معراج الذلة والمسكنة، وهى فى التخصيص أتم، ويجب على كل مؤمن أن يعتقد أن النبى والرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها.

وافهم قوله تعالى: **﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾** [الضحى:٤] قال ابن عطية[١]: وللحالة الثانية خير لك من الحالة الأولى، وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الحق سبحانه له التدبير والمشيئة، وكان قد سبق من تدبيره ومشيئته أنه لا بد أن تعمر الأرض ببنى آدم، وأن يكون منهم – كما شاء – محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبين، وكان من تدبير حكمته أن لا بد من تمام ذلك وظهوره إلى عالم الشهادة، فأراد الحق سبحانه أن يكون تناول آدم للشجرة سبباً لنزوله إلى الأرض، ونزوله إلى الأرض سبباً لظهور مرتبة الخلافة التى مَنَّ عليه بها.

لذلك قال الشيخ أبو الحسن: أكرِمْ بها معصيةً أورثت الخلافة. وكان نزوله إلى الأرض حكماً قضاه الله قبل أن يخلق السموات والأرض.

وكذلك قال الشيخ أبو الحسن: والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه لما قال سبحانه: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** [البقرة:٣٠]، فمن حسن تدبير الله لآدم أكله للشجرة، ونزوله إلى الأرض، وإكرام الله إياه بالخلافة والإمامة، وإذ قد انتهى بنا المقال إلى ها هنا فلنتبع الفوائد والخصائص التى مُنِحَهَا آدم فى هذه الواقعة لتعلم أن لأهل الخصوص مع الله حالاً ليست لسواهم ولله فيهم تدبير لا يتوجه به لمن عداهم.

---

(١) هو الإمام المفسر، له تفسير مطبوع.

ففى أكل آدم للشجرة ونزوله إلى الأرض فوائد منها:

أن آدم وحواء – عليهما السلام – كانا فى الجنة متعرَّفاً إليهما بالرزق والعطاء والإحسان والنعماء، فأراد الحق سبحانه من خَفِيِّ لطفه فى تدبيره أن يأكلا من الشجرة ليتعرف إليهما بالحلم والستر والمغفرة والتوبة والاجتباء به.

الثانى:

الحلم، فإنه سبحانه لم يعاجلهما بالعقوبة حين فعلا، والحليم لا يعاجلك بالعقوبة على ما صَنَعْتَ، بل يمهلك إما إلى عفوه وإنعامه، وإما إلى عقوبته وانتقامه.

الثالث:

وهو أنه سبحانه تعرف لهما بالستر، وذلك أنه لما أكلا منها وبدت لهما سوءاتهما بزوال ملابس الجنة سترهما بورقها، كما قال سبحانه: **﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾** [الأعراف:٢٢]، فكان ذلك من وجود ستره.

الرابع:

وهو أنه أراد الحق سبحانه أن يعرفه باجتبائه له، وينشأ عن الاجتباء به مقامات التوبة إليه والهداية من عنده، فأراد الحق سبحانه أن يعرف آدم باجتبائه له وسابق عنايته فيه، فقضى عليه بأكل الشجرة، ثم لم يجعل أكله إياها سبباً لإعراضه عنه، ولا لقطع مدده منه، فكان فى ذلك إظهار لوده سبحانه فيه وعنايته به كما قالوا: من سبقت له العناية لا تضره الجناية، ورُبَّ ودٍ لا تقطعه المخالفة، والود الحقيقى هو الذى يدوم لك من الوادِّ لك موافقاً كنت أو مخالفاً، وليس فى قوله سبحانه: **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾** [طه:١٢٢] دليل على حدوث اجتبائية الحق فيه، بل اجتبائية الحق فيه كانت قبل وجوده، وإنما الذى حدث بعد الذنب ظهور أثر الاجتبائية من الله، فهو الذى قال فيه الحق سبحانه: **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ﴾** أى ثم أظهر له أثر الاجتبائية فيه والعناية به فيسَّره للتوبة إليه والهدى من عنده، فصار فى قوله: **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾** [طه:١٢٢] تعرفات ثلاث: الاجتبائية، والتوبة التى

هى نتيجتها، والهدى الذى هو نتيج التوبة، فافهم، ثم أنزله إلى الأرض فتعرف له فيها بحكمته كما تعرف له فى الجنة بظواهر قدرته، وذلك لأن الدنيا محل الوسائط والأسباب، فلما نزل آدم إلى الأرض علم الحراثة والزراعة وما يحتاج إليه من أسباب عيشته ليحققه الله بما أعلمه به من قبل أن ينزله بقوله: **﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾** [طه:١١٧].

والمراد بقوله: **﴿فَتَشْقَى﴾** تعب الظواهر، لا الشقاوة التى هى ضد السعادة، والدليل على ذلك قوله: **﴿فَتَشْقَى﴾** ولم يقل: (فتشقيا) لأن المتاعب والكُلَف إنما هى على الرجال دون النساء كما قال تعالى: **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾** [النساء:٣٤]، ولو كان المراد شقاءً بالقطعة ووجود الحجبة لقال: (فتشقيا)، فدل الإفراد على أنه ليس الشقاء ها هنا بقطعة ولا بعاد مع أنه لو ورد كذلك لحملناه على الظن الجميل، وأرجعناه إلى المتاعب الظاهرة بالتأويل.

فائدة جليلة:

اعلم أن أكل آدم للشجرة لم يكن عناداً ولا خلافاً، فإما أن يكون نسى الأمر فتعاطى الأكل وهو له غير ذاكر، وهو قول بعضهم، ويحمل عليه قوله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾** [طه:١١٥]، وإن كان يتناول ذاكراً للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له: **﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾** [الأعراف:٢٠] فلحبه فى الله وشغفه به أحب ما يؤديه إلى الخلود فى جواره والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملكية لأن آدم عليه السلام عاين قرب الملائكة من الله فأحب أن يأكل من الشجرة لينال الملكية التى هى أفضل أو التى هى فى ظنه كذلك، على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضاً أيهما أفضل: الملائكة أو الأنبياء؟ لا سيما وقد قال الله سبحانه: **﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾** [الأعراف:٢١]، قال آدم – عليه السلام: ما ظننت أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فكان كما قال الله: **﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾** [الأعراف:٢٢].

فائدة:

اعلم أن آدم – صلوات الله عليه – لم يكن لشيء مما يأكله أذى، بل كان رشحاً كرشح المسك كما يكون أهل الجنة فى الجنة إذا دخلوها، لكنه لما أكل من الشجرة المنهى عنها أخذته بطنه فقيل له: يا آدم أين؟ أعلى الأسرة أم على الحِجَال[١] أم على شاطئ الأنهار، انزل إلى الأرض التى هى ممكن ذلك فيها، فإذا كان ما به المعصية وصلت إليه آثارها فكيف لا تؤثر المعصية فى الفاعل لها فافهم.

تنبيه واعتبار:

اعلم أن كل شيء نهى الله عنه فهو شجرة والجنة حضرة الله، فيقال لآدم قلبك وحوى نفسك: ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة:٣٥] لكن آدم محظوظ بالعناية لما أكل من الشجرة أنزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى أنزلت إلى أرض القُطعة، فافهم، فإن تناولت شجرة النهى أخرجت من جنة الموافقة إلى وجود أرض القطعة فيشقى قلبك، وإنما يلاقى الشقاء وقت القطعة القلب لا النفس؛ لأن وقت القطعة يكون فيها ملائمات النفوس من ملذوذاتها وشهواتها، وانهماكها فى غفلاتها.

تنبيه وبيان:

اعلم أن الله سبحانه تعرف لآدم بالإيجاد فناداه يا قدير، ثم تعرف له بتخصيص الإرادة فناداه يا مريد، ثم تعرف له بحكمته لما نهاه عن أكل الشجرة فناداه يا حكيم، ثم قضى عليه[٢] بأكلها فناداه يا قاهر، ثم لم يعالجه بالعقوبة إذ أكلها فناداه يا حليم، ثم لم يفضحه فى ذلك فناداه يا ستار، ثم تاب عليه بعد ذلك فناداه يا تواب، ثم أشهده أن أكله للشجرة لم يقطع عنه وده فناداه يا ودود، ثم أنزله إلى

---

(١) الحِجَال: بيتٌ يزيَّن بالثياب والأسِرَّة والستور.

(٢) فى المخطوط (عليها)، والمثبت الصحيح.

الأرض ويسر له أسباب المعيشة فناداه يا لطيف، ثم قواه على ما اقتضاه منه فناداه يا قوى، ثم أشهده سر النهى والأكل والنزول فناداه يا حكيم، ثم نصره على العـدو المُكَايد فناداه يا نصير، ثم ساعده على أعباء تكليف العبودية فناداه يا ظهير، فمـا أنزله إلى الأرض إلا ليكمل له وجود التعريف ويقيمه بوظائف التكليف، فتكملت فى آدم – عليه السلام – العبوديتان: عبودية التعريف وعبودية التكليف، فعظمت منـة الله عليه، وتوفر إحسانه لديه، فافهم.

انعطافٌ

اعلم أن أَجَلَّ مقامٍ أقيم فيه العبد مقام العبودية، وكل المقامات إنما هى كالخدمة لهذا المقام، والدليل على أن العبودية أشرف مقام قول الله سبحانه: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾** [الإسراء:١]، **﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾** [الأنفال:٤١]، **﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾** [مريم: ١، ٢]، **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾** [الجن:١٩]، ولما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار العبودية لله، ففى ذلك أدل دليلٍ على أنها من أفضل المقامات وأعظم القربات، وقال ﷺ: «**إنما أنا عبدٌ لا آكل متكئاً إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد**»، وقال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»، وسمعت شيخنا أبا العباس[1] يقول: "ولا فخر" أى: ولا أفتخر بالسيادة بها، إنما الفخر لى بالعبودية لله، ولأجلها كان الإيجاد قال الله سبحانه: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات:٥٦] والعبادة ظاهر العبودية، والعبودية روحها، وإذ قد فهمت هذا فروح العبودية وسرها إنما هو ترك الاختيار وعدم منازعة الأقدار.

فتبين من هذا أن العبودية ترك التدبير مع الربوبية، فإذا كان لا يتم مقام العبودية الذى هو أشرف المقامات إلا بترك التدبير فحقيقٌ على العبد أن يكون له تاركاً، وللتسليم لله والتفويض سالكاً، ليصل إلى المقام الأكمل والمنهج الأفضل، وسمع رسول الله ﷺ أبا بكر – رضى الله عنه – يقرأ ويخفى صوته، وعمر – رضى الله عنه – يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبى بكر: «**لم خفضت صوتك**»؟ قال: قد أسمعتُ مَنْ ناجيتُ، وقال لعمر: «**لم رفعتَ صوتك**»؟ قال: أوقظ الوسْنَان[2] وأطرد الشيطان، فقال لأبى بكر: «**ارفع قليلاً**»، وقال – عليه السلام – لعمر:

---

(١) سبقت ترجمته – رضى الله عنه.

(٢) أى: النائم غافلاً عن ذكر ربه.

«اخفض قليلاً»، وكان شيخنا أبو العباس يقول: هاهنا أراد ﷺ أن يُخرِج كل واحد منهما عن مراده لنفسه لمراده ﷺ له.

تنبيه:

تَفَطَّنْ – رحمك الله – لهذا الحديث تعلم منه أن الخروج عن الإرادة هي أفضل العبادة؛ لأن أبا بكر وعمر – رضى الله عنهما – كل واحد منهما قد أبان لما سأله رسول الله ﷺ عن صحة قصده، وبعد ذلك أخرجهما ﷺ عما أرادا لأنفسهما مع صحة قصدهما إلى اختيار رسول الله ﷺ.

فائدة:

اعلم أن بنى إسرائيل لما دخلوا التّيه[1] ورزقوا المن والسلوى[2]، واختار الله لهم ذلك رزقاً رزقهم إياه يبرز من عين المنة من غير تعبٍ ولا نصبٍ، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود إلْفِ العادة، والغيبة عن شهود تدبير الله إلى طلب ما كانوا يعتادونه فقالوا: **﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾** [البقرة: ٦١]؛ لأنهم تركوا ما اختار الله لهم مائلين لما اختاروه لأنفسهم، فقيل لهم على طريقة التوبيخ: **﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾** فظاهر التفسير: أتستبدلون الفوم والعدس والبصل بالمن والسلوى، وليس النوعان سواء فى اللذاذة ولا فى سقوط المشقة، وسر الاعتبار: أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد الله لكم؟ أتستبدلون الذى هو أدنى وما أردتموه بالذى هو خير – وهو ما أراد الله لكم؟ اهبطوا مصراً فإن ما اشتهيتموه لا يليق أن يكون إلا فى الأمصار، وفى سر

---

(١) التّيه: المفازة (الصحراء).

(٢) المَنُّ: كل ما نزل سهلاً من غير تعبٍ ولا نصبٍ. والسَّلوى: طائرٌ، والعسل أيضاً. "مختار الصحاح".

الاعتبار اهبطوا عن سماء التفويض وحسن التدبير منا لكم إلى أرض التدبير والاختيار منكم لأنفسكم موصوفين بالذلة والمسكنة لاختياركم مع الله وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله.

ولو أن هذه الأمة هى الكائنة فى التّيه لما قالت مقال بنى إسرائيل لشفوف أنوارهم ونفوذ أسرارهم، ألا ترى أن بنى إسرائيل قالوا فى ابتداء هذا الأمر، وهو كان سبب التّيه لموسى - صلوات الله عليه: **﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** [المائدة:٢٤]، وقالوا فى آخره: **﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾** [الأعراف:١٣٤]، فأبوا فى الأول عن امتثال أمر الله، وفى الآخر اختاروا لأنفسهم غير ما اختار الله، وكثيراً ما تكرر منهم ما يدل على بعدهم عن مصدر الحقيقة وسواء الطريقة فى قولهم: **﴿أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً﴾** [النساء:١٥٣]، وفى قولهم لموسى - عليه السلام - وبَعْدُ لم ينشف بلل البحر من أقدامهم حين فُرِقَ[1] لهم لما عبروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا: **﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** [الأعراف:١٣٨]، فكانوا كما قال موسى - صلوات الله عليه: **﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف:١٣٨]، وكذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾** [الأعراف:١٧١]، وهذه الأمة نُتِقَ[2] فوق قلوبها جبال الهيبة والعظمة فأخذوا الكتاب بذلك وأُيِّدوا لما هنالك، وحفظوا من عبادة[3] العجل وغير ذلك لأن الله سبحانه اختار هذه الأمة واختار لها وأثنى عليها بقوله: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾** [آل عمران:١١٠]، وقوله: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** [البقرة:١٤٣] أى عدلاً خياراً، فتبين لك من هذا أن التدبير والاختيار من أشد الذنوب والأوزار، فإن أردت أن يكون من الله لك اختيار فأسقط معه الاختيار،

---

(١) أى: انشق لهم بعصا سيدنا موسى - عليه السلام.

(٢) النَتْق: الزعزعة. "مختار الصحاح".

(٣) فى المخطوط (وعبادة من عبد منهم) والصحيح المثبت كما هو فى نسخة مطبوعة.

وإن أردت أن يكون لك بحسن التدبير فلا تَدَّعِ معه وجود التدبير، وإن أردت الوصول إلى المراد فذلك بأن لا يكون لك معه مراد.

لذلك لما قيل لأبى يزيد(١): ما تريد؟ قال: أريد أن لا أريد. فلم تكن أمنيته من الله ولا طلبه منه إلا سقوط الإرادة معه لعلمه أنه أفضل الكرامات وأجل القربات، وقد يتفق للمخَصَّصِ الكرامات الظاهرة وبقايا التدبير كامنة فيه، فالكرامة الحقيقية إنما هى ترك التدبير مع الله والتفويض لحكم الله.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبدٌ مفترٍ كذاب، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب، وخُلَعِ المَرْضى(٢)، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله وعن الله فصاحبها مستدرج مغرور أوناقص أو هالك مثبور، فأعلمك أن الكرامة لا تكون كرامة حتى يصحبها الرضا عن الله، ومن لازم الرضا عن الله ترك التدبير معه وإسقاط الاختيار بين يديه.

واعلم أنه قد قال بعضهم: إن أبا يزيد لما أراد أن لا يريد فقد أراد، وهذا قول مَنْ لا معرفة عنده، وذلك أن أبا يزيد – رضى الله عنه – إنما أراد أن لا يريد لأن الله اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه، فهو فى إرادته أن لا يريد موافقٌ لإرادة الله له، لذلك قال الشيخ أبو الحسن: وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك

---

(١) سيدى أبو يزيد البسطامى: طيفور بن عيسى، مات سنة إحدى وستين ومائتين، ومن كلامه: اختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد، ولقد عملت فى المجاهدة ثلاثين سنةً فما وجدت شيئاً أشقى على العبد من العلم ومتابعته، وكان يقول: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله، وكان يقول: خلع الله على العبيد النعم ليرجعوا بها إليه فاشتغلوا بها عنه. الطبقات الكبرى – للإمام الشعرانى (جـ١ صـ١٣٢: صـ١٣٣).

(٢) أى: أن يلبس ثياب المرضى ويترك ما هو عليه من حسن الحال ولقاء الملك.

منه شىء، واسمع وأطع، وهذا موضوع الفقه الربانى والعلم اللدنى، وهو أرضٌ لتنزُّل علمِ الحقيقةِ المأخوذِ عن الله لمن استوى، فأفاد الشيخ بهذا الكلام أن كل مختار للشرع لا يناقضُ اختيارُه مقامَ العبودية المبنى على ترك الاختيار؛ لئلا ينخدع عقلٌ قاصرٌ عن درك الحقيقة بذلك فيظن أن الوظائف والأوراد ورواتب السنن إرادتها يخرج بها العبد عن صريح العبودية لأنه قد اختار.

قال الشيخ: إن كل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شىء وإنما أنت مخاطب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها لا عن تدبير الله ورسوله لك، فافهم.

فقد علمت إذا صح أن أبا يزيد ما أراد أن لا يريد إلا لأن الله أراد منه ذلك فلم تخرجه هذه الإرادة عن العبودية المقتضاة منه فقد علمت أن الطريق الموصلة إلى الله هى محو الإرادات ورفض المشيئات حتى قال الشيخ أبو الحسن: ولن يصل الولى إلى الله ومعه تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته، سمعت شيخنا أبا العباس يقول: ولن يصل الولى إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله، يريد – والله أعلم – تنقطع عنه انقطاع أدب لا انقطاع ملل، أو لأنه يشهد إذا قرب إبَّان وصوله عدم استحقاقه لذلك واستحقاره لنفسه أن يكون أهلاً لما هنالك فتنقطع عنه شهوة الوصول لذلك لا مللاً ولا سُلُوًّا ولا اشتغالاً عن الله بشىءٍ دونه، فإن أردت الإشراق والتنوير فعليك بإسقاط التدبير، واسلك إلى الله كما سلكوا تدرك ما أدركوا. اسلك مسالكهم وانهج مناهجهم، وألق عصاك فهذا جانب الوادى، ولنا فى هذا المعنى فى ابتداء العمر ما كتبت به لبعض إخوانى:

أيا صاحِ[1] هذا الرَّكْب قد سار مسرعاً * ونحن قعودٌ ما الذى أنت صانعُ؟

أترضى بأن تبقى المخلَّف بعدهم * صريع الأمانى والغرام ينازعُ؟

---

(١) أى: يا صاحبى، بالترخيم ليستقيم وزن البيت.

وهذا لسان الكون ينطق جَهْرةً * بأن جميع الكائنات قواطعُ
وأن لا يرى وجه السبيل سوى امرؤٌ * رمى بالسِّوَى[١] لم تختدعه المطامعُ
ومن أبصر الأشياء والحقَّ قبلها * فغيَّب مصنوعاً بمن هو صانعُ
بوادهُ أنوارٍ لمن كان ذاهباً * وتحقيق أسرارٍ لمن هو راجعُ
فقم فانظر الأكوان والنور عَمَّهَا * ففجر التدانى نحوك اليوم طالعُ
وكن عبده والق[٢] القياد لحكمه * وإياك تدبيراً فما هو نافعُ
أتحكم تدبيراً وغيرك حاكمٌ * أ أنت لأحكام الإله تنازعُ؟
فمحو إراداتٍ وكل مشيئةٍ * هو الغرض الأقصى فهل أنت سامعُ؟
كذلك سار الأولون فأدركوا * على آثرهم فليسرِ من هو تابعُ
على نفسه فليبكِ من كان طالباً * وما لمعتْ ممن يحبُّ لوامعُ
على نفسه فليبكِ من كان باكياً * أيذهب وقتٌ وهو باللهو ضائعُ[٣]

اعلم – وفقك الله – أن لله عباداً خرجوا عن التدبير مع الله بتأديبه الذى أدبهم وبتعليمه الذى علمهم، فنسخت[٤] الأنوار عزائم تدبيرهم، ودكَّت المعارف والأسرار وجود اختياراتهم، فنزلوا منزل الرضا فوجدوا نعيم المُقَام فاستغاثوا بالله واستصرخوا به خشية أن تشغلهم حلاوة الرضا فيميلوا إليها بمساكنةٍ أو يجنحوا لها بمراكنةٍ.

---

(١) أى: ما سوى الله تعالى من الأكوان.

(٢) قوله: (والق) بإسقاط الهمزة لأجل ضرورة الوزن.

(٣) الأبيات من بحر الطويل، ووزنه: (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) مرتين.

(٤) أى: أزالت، فمن معانى النسخ الإزالة.

قال الشيخ أبو الحسن: كنت فى ابتداء أمرى أدبر ما أصنع من الطاعات وأنواع الموافقات، فتارة أقول: ألزم البَرَارى والقِفَار[1]، وتارة أقول: أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار، فوُصِفَ لى ولىٌّ من الأولياء بجبلٍ هنالك، فطلعت إليه فوصلت إليه ليلاً، فكرهت أن أدخل عليه حينئذ فسمعته يقول: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك فأعطيتهم ذلك، فرضوا منك بذلك، اللهم إنى أسألك اعوجاج الخلق علىَّ حتى لا يكون ملجئى إلا إليك.

فقلت: يا نفسى انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ؟ فأقمت حتى إذا كان الصباح دخلت عليه فسلمت ثم قلت: يا سيدى كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار، فقلت: يا سيدى أما شكواى من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلم أفهمه، فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله، فقلت: يا سيدى سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك فأعطيتهم ذلك فرضوا منك بذلك، اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق علىَّ حتى لا يكون ملجئى إلا إليك، فتبسم ثم قال: يا بنى عِوَضَ ما تقول: سَخِّرْ لى خلقك قل: يا رب كن لى، أترى إذا كان ذلك أيفوتك شىء؟ فما هذا الجبن!

فائدة:

اعلم أن هلاك ابن نوح – عليه السلام – إنما كان لأجل رجوعه إلى تدبير نفسه وعدم رضاه بتدبير الله الذى اختاره لنوح – عليه السلام – ومن كان معه فى السفينة فقال له نوح: **﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾** [هود:٤٢]، قال: **﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء﴾** [هود:٤٣]، فقال له نوح: **﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾** [هود:٤٣]، فأوى فى المعنى إلى جبل عقله، ثم كان الجبل الذى استعصم به صورة ذلك المعنى القائم به، فكان كما قال الله تعالى:

---

(١) أى: الصحارى والمفازات.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣] فى الظاهر بالطوفان، وفـى الباطن بالحِرْمان، فاعتبر أيها العبد بذلك، فإذا تلاطمت عليك أمواج الأقـدار فـلا ترجع إلى جبل عقلك لئلا تكون من المغرقين فى بحر القطعة، ولكن ارجـع إلـى سفينة الاعتصام بالله والتوكل على الله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، فإنك إن فعلت ذلك استوت بك سفينة النجاة على جودِيِّ الأمن، ثم تهبط بسلامة القربـة وبركات الوصلة عليك وعلى أمم ممن معك، وهى عوالم وجودك، فافهم ذلـك ولا تكن من الغافلين، واعبد ربك ولا تكن من الجاهلين فقد علمت أن إسـقاط التـدبير والاختيار أهم ما يلتزمه الموقنون ويطلبه العابدون، وأشرف ما يتحلى به العارفون.

سألت بعض العارفين ونحن تجاه الكعبة فقلت له: من أى الناحيتين يكـون رجوعك؟ فقال لى: لى مع الله عادةٌ أن لا تجاوز إرادتى قدمى. قال بعض المشايخ: لو أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار وبقيت لم يقع عنـدى تمييـز فـى أى الدارين يكون قرارى. فهذا حال عبدٍ محيت اختياراته وإراداته ولم يبق له مـع الله مراد إلا ما أراد. كما قال بعضهم: أصبحت وهواى فى مواقع قدر الله، قـال أبـو حفص: منذ أربعين سنةً ما أقامنى الله فى حالٍ فكرهتـه، ولا نقلنـى إلـى غيـره فسخطته، قال بعضهم: لى أربعون سنة أشتهى أن أشتهى لأترك ما أشتهى فلا أجد ما أشتهى، فهذه قلوب تولى الله رعايتها وأوجب حمايتها، ألم تسمع قوله سـبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء:٦٥] لأن تحققهم بمقام العبودية أبى لهم الاختيار مع الربوبية، وأن يقارفوا[1] ذنباً أو يلابسوا عيباً، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] فقلوبٌ لـيس للشيطان عليها سلطانٌ من أين يطرقها وساوس التدبير أو يَرِدُ عليها وجود التكدير؟ وفى الآية بيان أن من صحح الإيمان بالله والتوكل على الله فلا سـلطان للشـيطان

(١) أى: يقترفوا ويجترحوا السيئات.

عليه؛ لأن الشيطان إنما يأتيك من أحد وجهين: إما بتشكيك فى الاعتقاد، وإما بركونٍ إلى الخلق واعتماد، فأما التشكيك فى الاعتقاد فالإيمان ينفيه، وأما الركون إلى الخلق والاعتماد فالتوكل على الله ينقيه[1].

تنبيهٌ:

اعلم أن المؤمن قد تَرِدُ عليه خواطر التدبير، ولكن الله لا يدعه لذلك ولا يتركه لما هنالك، ألم تسمع قوله سبحانه: **﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾** [البقرة:٢٥٧]؟ فالحق سبحانه يخرج المؤمنين من ظلمات التدبير إلى شوارقِ نور التفويض، ويقذف بحق تثبيته على باطل اضطرابهم فيزيل[2] أركانه ويهدم بنيانه كما قال تعالى: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** [الأنبياء:١٨] والمؤمن وإن وردت عليه خواطر الاضطراب والتدبير فهى عارية لا ثبوت[3] لها ومضمحلة لا وجود لها؛ لأن نور الإيمان قد استقر فى قلوب المؤمنين، وملأت أنواره قلوبهم، وشرح ضياؤه صدورهم، فأبى لهم الإيمان المستقر أن يسكن معه غيره وإنما هى سنة وردت على القلوب أمكن فيها ورود طيف التدبير، ثم تتيقظ القلوب فيزول الطيف الذى لا يكون إلا مناماً.

قال الله سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ﴾** [الأعراف:٢٠١].

---

(١) فى المخطوط (يقيه) والصحيح المثبت.

(٢) وفى نسخةٍ مطبوعةٍ (ويزلزل) وكلاهما يصلح للمعنى المراد.

(٣) فى المخطوط (ثبت) والأصح المثبت.

وفى هذه الآية فوائد:

الأولى:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَـذَكَّرُواْ﴾ دل ذلك على أن أصل أمرهم على وجود السلامة منه، وإن عَرَضَ ذلك الطيف ففـى بعض الأحيان تعريفا بما أُودِعَ فيك من ودائع الإيمان.

الثانية:

قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ ولم يقل: (إذا أمسكهم)، أو (أخذهم)؛ لأن المس ملامسة من غير تمكُنٍ، فأفادت هذه العبارة أن طيف الهوى لا يتمكن من قلوبهم بل يماسها مماسةً، ولا يتمكن منها إمساكاً ولا أخذاً كما يصنع بالكافرين؛ لأن الشيطان يستحوذ على الكافرين ويختلس اختلاساً من قلوب المؤمنين حين تنـام العقـول الحارسـة للقلوب، فإذا استيقظوا انبعثت من قلوبهم جيوش الاستغفار والذلة إلى الله والافتقار، فاسترجعوا من الشيطان ما اختلسه، وأخذوا منه ما افترسه.

الثالثة:

قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ والإشارة ههنا بالطيف إلى أن الشيطان لا يمكنه أن يأتى القلوب الدائمة اليقظة؛ لأنه إنما يورد طيف الغفلة والهوى على القلوب فى حين منامها بوجود غفلتها، ومَنْ لا نوم له فلا طيف يرد عليه.

الرابعة:

قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ ولم يقل: (إذا مسهم واردٌ من الشيطان) أو نحوه؛ لأن الطيف لا بيت له ولا وجود له، إنما هى صورة مثالية ليس لها حقيقة وجودية، فأخبر سبحانه بذلك أن ذلك غير ضارٍ بالمتقين؛ لأن ما يورده الشيطان على قلوبهم بمثابة الطيف الذى تراه فى منامك، فإذا استيقظت فلا وجود له.

الخامسة:

أنه قال سبحانه: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ﴾ ولم يقل: (ذكروا) إشارة إلى أن الغفلة لا يطردها الذكر مع غفلة القلـب، وإنمـا يطردهـا التـذكر

والاعتبار وإن لم تكن الأذكار[١]؛ لأن الذكر ميدانه اللسان، والتذكر ميدانه القلب، وطيف الهوى لما ورد إنما ورد على القلوب لا على الألسنة، فالذى ينفيه إنما هو التذكر الذى يحل محله ويمحق فعله.

السادسة:

قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ حذف متعلَّقه، ولم يقل: (تذكروا الجنة والنار) أو العقوبة أو غير ذلك، وإنما حذف متعلَّق (تذكروا) لفائدةٍ جليلةٍ، وذلك أن التذكر الماحى لطيف الهوى من قلوب المتقين على حسب مراتب المتقين، ومرتبة التقوى يدخل فيها الأنبياء والرسل والصديقون والأولياء والصالحون، فتقوى كل واحدٍ على حَسْب مقامه، كذلك أيضاً تذكر كل واحد على حَسْب مقامه، فلو ذكر قسماً من أقسام التذكر لم يدخل فيه إلا أهل ذلك القسم، لو قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ خرج منه الذين تذكروا المثوبة، ولو قال: (تذكروا لواحق الامتنان إلى غير ذلك) فأراد سبحانه أن لا يذكر متعلَّق الذكر ليشمل المراتب كلها، فافهم[٢].

السابعة:

أنه قال سبحانه: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ولم يقل: (تذكروا فأبصروا) أو (تذكروا ثم أبصروا) أو (تذكروا وأبصروا) فأما تركه للتعبير بالواو فلأنه كان لا يفيد أن البُصْرى كانت عن التذكر[٣]، والمراد أنها كانت مسببة عنه ترغيباً للعباد فيها، وأما عدوله عن (ثم) لأن فيها ما فى الواو من عدم الدلالة على السببية[٤]،

---

(١) أى: إنما يطرد الغفلة التذكر والتفكر والتأمل والاعتبار وإن لم يكن الإنسان ذاكراً باللسان حينئذٍ.

(٢) فإن حذف المتعلَّق أفاد عموماً.

(٣) فإنها ستكون واو حالٍ حينئذٍ، فيكون المعنى: تذكروا وإذا حالهم أنهم مبصرون، وهذا لا يفيد أن البصرى ناتجة عن التذكر من ناحية المعنى والسياق والفهم.

(٤) فى المخطوط (التشبيه) وهو خطأ من الناسخ، والصحيح المثبت.

وفيها أنها كانت تقتضى عكس المعنى لما فيها من المهلة، ومراد الحق سبحانه أن هؤلاء العباد لا يتأخر بُصْرَاهم عن تذكرهم، ولم يعبر بالفاء لاقتضائها التعقيب بل عبر الحق سبحانه بقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ كأنهم لم يزالوا على ذلك ثناءً منه سبحانه عليهم وإظهاراً لوافر المنة لديهم، كما تقول: تذكر زيد المسألة فإذا هى صحيحةٌ؛ أى: إنها لم تزل صحيحةً، وإنما الآن كما وقع العلم بها، كذلك المتقون ما زالوا مبصرين، ولكن كانوا فى حين ورود طيف الهوى عليهم غطى على بُصْرَاهم[1] الثابت نورها فيهم، فلما استيقظوا أذهب سبحانه الغفلة، فأشرقت شمس البصيرة.

الثامنة:

فى هذه الآية ونظائرها توسعة على المتقين، ولطف بالمؤمنين لأنه لو قال: "إن الذين اتقوا لا يمسهم طائف من الشيطان" لخرج من ذلك كل أحد إلا أهل العصمة، فأراد الحق سبحانه أن يوسع دوائر رحمته فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ ليعلمك أن ورود الطيف عليهم لا يخرجهم من ثبوت حكم التقوى لهم وجريان اسمه عليهم إذا كانوا كما وصفهم مسرعين بالتذكر راجعين إلى الله بالتبصر، ومثل هذه الآية فى بسط رجاء العباد والتوسعة عليهم قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] ولم يقل: يحب الذين لا يذنبون؛ لأنه لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا قليل[2]، فعلم الحق سبحانه ما العباد مركَّبون عليه من وجود الغفلة وما تقتضيه النشأة الأولى لكونها ركبت من أمشاجٍ من وقوع المخالفة، وقد قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] قال بعض أهل العلم: لا يتمالك عند قيام الشهوة به، وقال سبحانه:

---

(١) وفى نسخة مطبوعة (بصيرتهم).

(٢) وهم المحفوظون من ارتكاب المعاصى، وفوقهم المعصومون من الأنبياء والرسل – عليهم السلام.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم:٣٢]، فلأجل ما علم أن الخطأ غالب على الإنسان فتح له باب التوبة ودلَّه عليها ودعاه إليها، ووعده القبول إذا تاب، والإقبال عليه إذا رجع إليه وأناب، وقال ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» فأعلمك ﷺ أن الخطأ لازم وجودك، بل كان عين وجودك، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥] ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، ولم يقل: والذين لا غيظ لهم، فافهم – رحمك الله – فهذه أسرار بينةٌ وأمور متعينةٌ.

التاسعة:

تبيين مراتب المتذكرين من المتقين، اعلم أن أهل التقوى إذا مسهم طائف من الشيطان لا يدعهم تقواهم للإصرار على معصية مولاهم، بل ترجعهم إليه بذكرهم، وتذكُّرهم على أقسامٍ: **متذكر** يتذكر الثواب، **ومتذكر** يتذكر العقاب، **ومتذكر** يتذكر الوقوف للحساب، **ومتذكر** يتذكر سابق الإحسان فيستحي من وجود العصيان، **ومتذكر** يتذكر لواحق الامتنان فيستحي أن يقابل ذلك بالكفران، **ومتذكر** يتذكر قرب الله منه، **ومتذكر** يتذكر إحاطة الحق به، **ومتذكر** يتذكر نظر الحق له، **ومتذكر** يتذكر معاهدة الله له، **ومتذكر** يتذكر فناء لذاته وبقاء مطالبته، **ومتذكر** يتذكر وبال المخالفة فيكون لها تاركاً، **ومتذكر** يتذكر فوائد الموافقة وعزها فيكون لها سالكاً، **ومتذكر** يتذكر قيومية الحق به، **ومتذكر** يتذكر عظمة الحق وسلطانه، إلى غير ذلك من تعلقات التذكر وهي لا حصر لها[1]، وإنما ذكرنا ما ذكرنا منها تأنيساً لك بأحوال المتقين وتنبيهاً على بعض مقامات المتبصرين، فافهم.

---

(١) وقد قال أولياء الله الصالحون: إن لله طرائق بعدد الخلائق.

العاشرة:

يمكن أن يكون قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ**﴾ أن يكون المراد بالطيف ههنا طيف الهاجس أو الخاطر الواردين من وجود النفس بإلقاء الشيطان، وسُمِّى طيفا لأنه يطيف بالقلب، وتفسير القراءة الأخرى: ﴿**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ**﴾ فتكون إحدى القراءتين مفسرة للأخرى، والهاجس يطيف بالقلب[1]، فإن وجد له مسلكاً يثلمه[2]، يجدها فى سور مقام اليقين دخل وإلا ذهب. مَثَلُ مقامات اليقين ونور اليقين الجامع لها كالأسوار المحيطة بالبلدة وقلاعها، فالأسوار هى الأنوار، وقلاعها هى مقامات اليقين التى هى دائرة بمدينة القلب، فمن أحاط بقلبه سور يقينه وصحح مقاماته التى هى أسوار الأنوار كالقلاع فليس للشيطان إليه سبيل ولا له فى داره مَقِيل[3]، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الإسراء:٦٥]؟ أى: لأنهم قد صححوا العبودية فلا هم لحكمى ينازعون ولا فى تدبيرى معترضون، بل هم علىَّ متوكلون وإلىَّ مستسلمون؛ فلذلك قام لهم الحق بالرعاية والنصر والحماية، وجهوا هممهم إليه فكفاهم مَنْ دونه.

قيل لبعض العارفين: كيف مجاهدتك للشيطان؟ قال: وما الشيطان؟ نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله فكفانا مَنْ دونه.

وسمعت شيخنا أبا العباس – رضى الله عنه – يقول: لما قال الحق سبحانه: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر:٦] فقومٌ فهموا من هذا الخطاب أن

---

(١) مراتب القصد خمس عند العلماء كما قالوا:

مراتب القصد خمسٌ هاجسٌ ذكروا * فخاطرٌ فحديث النفسِ فاستمعا
يليه همٌّ فعزمٌ كلها رفعتْ * سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

فالهاجس: ما إذا عرض لم يستقر، والخاطر: أكثر منه ثباتاً، وحديث النفس: يكون فيه جولاناً فى نفسه، والهم: التوجه إلى الفعل، والعزم: التوجه إلى الفعل مع النية المؤكدة والإصرار.

(٢) أى: يحدث فيه خللاً، من ثلم الإناء: أى أحدث فيه خللاً وكسره.

(٣) أى: مأوى يسكن إليه، تشبيهاً له بالظل يتخذه الإنسان من الشمس.

الله طالبهم بعداوة الشيطان فصرفوا هممهم إلى عداوته فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقومٌ فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو، أى: وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبة الله فكفاهم مَنْ دونه، ثم ذكر الحكاية المتقدمة، وإن استعاذوا من الشيطان فلأجل أن الله أمرهم بذلك لا أنهم يشهدون أن لغير الله من الحكم معه شيئاً، فكيف يشهدون لغيره حكماً معه وهم يسمعونه يقول: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾** [يوسف:٤٠]، وقد قال سبحانه: **﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** [النساء:٧٦]، وقال سبحانه: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾** [الإسراء:٦٥]، وقال تعالى: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** [النحل:٩٩]، وقال تعالى: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق:٣]، وقال سبحانه: **﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾** [البقرة:٢٥٧]، وقال سبحانه: **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الروم:٤٧]، فهذه الآيات ونظائرها قَوَّتْ قلوب المؤمنين ونصرتهم النصر المبين، فإن استعاذوا من الشيطان فبأمره، وإن استولوا بنور الإيمان عليه فبوجود نصره، وإن سلموا من كيده لهم فبنائلته وبره.

قال الشيخ أبو الحسن: اجتمعتُ برجل فى سياحتى فأوصانى فقال: ليس شىء فى الأقوال أعون على الأفعال من: "لا حول ولا قوة إلا بالله" وليس فى الأفعال أعون من الفرار إلى الله والاعتصام بالله من[1]: **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [آل عمران:١٠١]، ثم قال: بسم الله فررت إلى الله واعتصمت بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله ومن يغفر الذنوب إلا الله، "بسم الله" قولٌ باللسان صدر عن القلب، "ففروا إلى الله" وصف الروح والسر، "واعتصمت بالله" وصف العقل والنفس، "ولا حول ولا قوة إلا بالله" وصف المَلِك والآمر، ومن يغفر الذنوب إلا الله رب أعوذ بك من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، ثم يقول للشيطان: هذا علم الله فيك وبالله آمنت وعليه توكلت، وأعوذ بالله منك ولولا ما

---

(١) فى المخطوط (واعتصموا بالله) بدل (مِنْ)، وهو سهو من الناسخ صوابه المثبت.

أمرنى ما استعذت، ومن أنت حتى أستعيذ بالله منك؟ فقد فهمت – يرحمك الله – أن الشيطان أحقر فى قلوبهم أن يصفوا له قدرة أو ينسبوا له إرادة، وسر الحكمة فى إيجاد الشيطان أن يكون مَظْهَراً ينسب إليه أسباب العصيان ووجود الكفران والغفلة والنسيان، ألم تسمع قوله: **﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾** [الكهف:٦٣]، **﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾** [القصص:١٥] فكان سر إيجاده لتمسح فيه أوساخ النَّسَبِ، ولذلك قال بعض العارفين: الشيطان مِنْدِيل[1] هذه الدار.

قال الشيخ أبو الحسن: الشيطان كالذكر والنفس كالأنثى، وحدوث الذنب بينهما كحدوث الولد بين الأب والأم لا أنهما أوجداه ولكن عنهما كان ظهوره.

ومعنى كلام الشيخ هذا أنه لا يشك عاقل أن الولد ليس من خلق الأب والأم ولا من إيجادهما، ونسب إليهما لظهوره عنهما، كذلك لا يشك مؤمن أن المعصية ليست من خلق الشيطان والنفس، بل كانت عنهما لا منهما، فلظهورها عنهما نسبت إليهما، فنسبة المعصية إلى الشيطان والنفس نسبة إضافةٍ وإسنادٍ، ونسبتها إلى الله نسبة خلقٍ وإيجادٍ كما أنه خالق الطاعة بفضله كذلك هو خالق المعصية بعدله **﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَا لِهَـؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾** [النساء:٧٨]، وقال سبحانه: **﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [الرعد:١٦]، وقال سبحانه: **﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾** [فاطر:٣]، وقال سبحانه: **﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل:١٧]، والآية القاصمة للمبتدعة المدعين أن الله يخلق الطاعة ولا يخلق المعصية.

قوله سبحانه: **﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات:٩٦][2]، فإن قالوا: فقد قال الله سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾** [الأعراف:٢٨] فالأمر غير

---

(١) بكسر الميم والدال المهملة كما فى "مختار الصحاح".

(٢) ومن جنس ما يعملون المعاصى كما أنهم يعملون الطاعة.

القضاء[١]، فإن قالوا: قد قال الله سبحانه: **﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾** [النساء:٧٩] فهو على هذا التفصيل يعلم العباد التأدب معه، فأمرنا أن نضيف المحاسن إليه لأنها اللائقة بوجوده والمساوئ إلينا لأنها اللائقة بوجودنا قياماً بحكم الأدب كما قال الخضر – عليه السلام: **﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾** [الكهف:٧٩]، وقال: **﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾** [الكهف:٨٢]، فأضاف العيب إلى نفسه والمحاسن إلى سيده، وكذلك إبراهيم – عليه السلام – لم يقل: وإذا أمرضنى فهو يشفين، بل قال: **﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾** [الشعراء:٨٠]، فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه مع أن الله هو فاعل ذلك حقيقةً وخالقه، فقوله تعالى: **﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾** [النساء:٧٩] أى خلقاً وإيجاداً، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، أى إضافة وإسناداً[٢]، كما قال – عليه السلام: «**والخير بيديك والشر ليس إليك**»، وقد علم – عليه السلام – أن الله خالق الخير والشر والنفع والضر، ولكن التزم أدب التعبير فقال: «**والخير بيديك والشر ليس إليك**» على ما بيناه، فافهم.

فإن قالوا: إن الحق سبحانه منزه عن أن يخلق المعصية لأنها قبيحة، والحق سبحانه مقدس عن خلق القبائح، قلنا: فعل المعصية قبيح من العباد لأنها مخالفة للأمر؛ إذ القبح لا يرجع إلى ذات المنهى عنه ولكن لأجل تعلق النهى به كما أن الحسن لا يتعلق بذات المأمور به لكن بمعنىً تعلّق الأمر به، فافهم، ثم إن الحق سبحانه يجب تنزيهه عن هذا التنزيه وذلك أنهم إذا قالوا: تعالى الله أن يخلق المعصية قلنا: تعالى الله أن يكون فى ملكه ما لا يريد، فافهم هدانا الله وإياك إلى الصراط المستقيم وأقامنا على الدين القويم.

---

(١) فالله تعالى قضى بوقوع الفحشاء من بعضهم وإن لم يأمر بها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

(٢) أى: أنت الكاسب الجانى المتسبب المقترف للسيئة باختيارك.

تقديرٌ وبيانٌ لذكر قواعد التدبير ومنازعة المقادير

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣٠، ١٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ من قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، وقال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج:٣٤]، وقال: ﴿فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان:٢٢]، وقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقال: ﴿وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣] إلى غير ذلك، فاعلم أن هذا التكرار لذكر الإسلام تنويهاً بقدره وتفخيماً لأمره، والإسلام له ظاهر وباطن، فظاهره الموافقة لله وباطنه عدم المنازعة له، فالإسلام حظ الهياكل[1] وعدم المنازعة وهو الاستسلام حظ القلوب، فالإسلام كالصورة والاستسلام هو روح تلك الصورة، والإسلام ظاهر والاستسلام باطن ذلك الظاهر، فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله فكان ظاهراً بامتثال أمره وباطناً بالاستسلام إلى قهره.

وتحقيق مقام الاستسلام بعدم المنازعة لله فى أحكامه والتفويض له فى نقضه وإبرامه[2]، فمن ادعى الإسلام طولب بالاستسلام ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١] ألا ترى أن إبراهيم – عليه السلام – لما قال له ربه: ﴿أَسْلِمْ﴾ [البقرة:١٣١] قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]؟ فلما زُجَّ به فى المنجنيق[3] واستغاثت الملائكة قائلةً: يا ربنا هذا خليلك وقد نزل به ما أنت به أعلم،

---

(١) أى: نصيبها وقسمتها وسهمها.

(٢) أى: إنفاذه للقضاء والقدر وحكمه وشريعته.

(٣) المَنْجَنيق: آلة ترمى بها الحجارة. "القاموس المحيط".

فقال الحق سبحانه: اذهب إليه يا جبريل فإن استغاث بك فأغثه وإلا فاتركنى وخليلى، فلما جاءه جبريل - عليه السلام - فى أفق الهواء قال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، قال: سَلْهُ[1]، قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته لما سوى الله بل استسلم لحكم الله مكتفيا بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه، وبرعاية الحق له عن رعايته لها، وبعلم الحق سبحانه عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف فى جميع أحواله، فأثنى عليه بقوله: **﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾** [النجم:٣٧] ونجاه من النار فقال: **﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾** [الأنبياء:٦٩].

قال أهل العلم: لو لم يقل الحق: **﴿وَسَلَامًا﴾** لأهلكه بردها فخمدت تلك النار، وقال أهل العلم بأخبار الأنبياء: لم يبق فى ذلك الوقت نار بمشارق الأرض ولا مغاربها إلا خمدت ظانةً أنها المعنيَّة بالخطاب فقيل: إنه لم تحرق النار منه إلا قيده.

فائدة جليلة:

انظر إلى قول إبراهيم - عليه السلام - لما قال له جبريل - عليه السلام: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، ولم يقل: ليس لى حاجة؛ لأن مقام الرسالة والخلة يقتضى القيام بصريح العبودية، ومِنْ لازم مقام العبودية إظهار الحاجة إلى الله والقيام بين يديه بوصف الفاقة، فناسب ذلك أن يقول: أما إليك فلا، أى: أنا محتاج إلى الله، وأما إليك فلا، فجمع فى كلامه هذا إظهار الفاقة إلى الله ورفع الهمة عما سوى الله، لا كما قال بعضهم: لا يكون الصوفى صوفياً حتى لا يكون له إلى الله حاجة، وهذا كلام لا يليق بأهل الاقتداء المكمَّلين مع أنه مؤول لقائله بأن مراده أن الصوفى قد تحقق بأن الله قد قضى حوائجه من قبل أن يخلقه، فليس له إلى الله حاجة إلا وهى مقضية فى الأزل، ولا يلزم من نفى الحاجة نفى الاحتياج.

(١) أى: اسأله.

التأويل الثانى:

إنما قال: "لا يكون له إلى الله حاجة"، أى: إنما بطلبه ليس همه الطلب منه، وشتان بين طالبٍ لله وطالبٍ من الله، وقد يكون مراده بقوله: لا يكون له إلى الله حاجة أنه مفوض إلى الله مستسلم له، فليس له مع الله مراد إلا ما أراد.

فائدة جليلة أيضاً:

وذلك أن جبريل – عليه السلام – لما قال لإبراهيم – عليه السلام: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، علم جبريل – عليه السلام – أنه لا يستغيث به وأن قلبه لا يشهد إلا الله وحده، فقال له حينئذ: سَلْهُ؛ أى: إن لم تستغث بى التزاماً منك عدم التمسك بالوسائط فَسَلْ ربك فإنه أقرب إليك منى، فقال إبراهيم مجيباً: حسبى من سؤالى علمه بحالى، أى: إنى نظرت فرأيته أقرب من سؤالى، ورأيت سؤالى من الوسائط، وأنا لا أريد أن أستمسك بشيء دونه، ولأنى علمت أن الحق سبحانه عالم فلا يحتاج أن يذكر بسؤالٍ، ولا يجوز عليه الإهمال، فاكتفيت بعلم الله عن السؤال، وعلمت أنه لا يدعنى من لطفه فى حال. وهذا هو الاكتفاء بالله والقيام بحقوق "حسبى الله".

كان شيخنا يقول فى قوله سبحانه: **﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾** [النجم:٣٧] قال: وَفَّى بمقتضى قوله: "حسبى الله".

قال بعضهم: سلَّم طعامه للضِيفان، وولده للقُربان، وبدنه للنيران، فأثنى عليه الحق بقوله: **﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾**.

فائدة جليلة:

اعلم أن الملائكة لما قال لهم الحق سبحانه: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** [البقرة:٣٠]، يعنى: آدم وذريته قالوا: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾** [البقرة:٣٠] قال: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة:٣٠]، فكان عدم استغاثة إبراهيم – عليه السلام – بجبريل فى ذلك الموطن احتجاجاً من الله عليهم كأنه يقول: كيف رأيتم عبدى هذا يا من قال: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا**

مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾؟ فظهر بذلك سر قوله سبحانه: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

جاء فى الحديث عنه – عليه السلام: «**يتعاقبون فيكم ملائكة الليل والنهار فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم – وهو أعلم – كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون**» قال الشيخ أبو الحسن: كأن الحق سبحانه يقول لهم: يا من قال: "أتجعل فيها من يفسد فيها كيف" تركتم عبادى؟ فكان مراد الحق سبحانه بإرسال جبريل – عليه السلام – إليه لإظهار رتبة الخليل – عليه السلام – عند ملائكته وتثبيتاً لشرف قدره وفخامة أمره، وكيف يمكن لإبراهيم[1] – عليه السلام – أن يستغيث بشيء دونه وهو لا يرى إلا إياه ولا يشهد سواه؟ وإنما سمى الخليل لأنه تخلل سِرَّه محبةُ الله وعظمته وأحديته فلم يبق فيه متسع لغيره كما قال:

قد تخللت مسلك الرُّوح منى * وبذا سُمِّى الخليل خليلا

فإذا ما نطقتَ كنت كلامى * وإذا صمتُّ كنت الغليلا

---

(١) اللام ساقطة من الأصل.

تنبيه وإعلام

اعلم أن الحق سبحانه بسط سر إبراهيم – عليه السلام – بنور الرضا وأعطاه روح الاستسلام، وصان قلبه عن النظر إلى الآثام، فما عادت النار عليه برداً وسلاماً إلا لما كان قلبه مفوضاً إلى الله استسلاماً، فعن الاستسلام كان السلام، وعن تصحيح باطن المقام كان ما ظهر عليه من الإجلال والإعظام، فافهم من ذلك أيها المؤمن أن من استسلم إلى الله فى واردات الامتحان أعاد الله عليه شوكها ربحاً وخوفها أماناً، فإذا قذفك الشيطان فى منجنيق الامتحان فعرضت لك الأكوان قائلات ألك حاجة؟ فقل: أما إليكِ فلا، وأما إلى الله فبلى، فإن قالت لك: سَلْهُ فقل: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فإن الله يعيد عليك نار الدنيا برداً وسلاماً ويعطيك منةً وإكراماً؛ لأن الله سبحانه فتح بالأنبياء والرسل سبيل الهدى، فسلك وراءهم المؤمنون والتزم اتباعهم الموقنون، كما قال سبحانه: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** [يوسف:١٠٨]، وقال فى شأن يونس ﷺ: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنبياء:٨٨]؛ أى: وكذلك ننجى المؤمنين المتبعين لآثاره المستشرفين لأنواره الطالبين من الله بالذلة والافتقار واللابسين شعار المسكنة والانكسار.

انعطافٌ

فى قصة إبراهيم هذه بيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين، وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه فكان الله سبحانه هو المتولى بحسن التدبير له، ألا ترى أن إبراهيم لما لم يرد لنفسه ولا اهتم بها ألقاها إلى الله وأسلمها إليه وتوكل فى كل شأنه عليه، فلما كان كذلك كان عاقبة الاستسلام وجود السلامة والإكرام وبقاء الثناء عليه على ممر الأيام، وقد أمرنا الله أن لا نخرج عن ملته وأن نرعى حق تسميته بقوله: **﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الحج:٧٨] فحق على كل من كان إبراهيمياً أن يكون من تدبير نفسه بريًّا، ومن منازعة الله خلياً، **﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾** [البقرة:١٣٠]، وملته لازمها التفويض إلى الله والاستسلام فى واردات الأحكام، واعلم أن المراد هو أن لا يكون لك مع الله مراد، ولنا فى هذا المعنى:

مرادى منك نسيان المراد * إذا رمتَ السبيل إلى الرشادِ

وأن تدع الوجود فلا تراه * وتصبح ماسكاً حبل اعتمادِ

إلى كم غفلةٍ عنى وإنى * على حفظ الرعاية والودادِ

إلى كم أنت ناظر مبدعاتى * وتصبح هائماً فى كل وادِ

وتترك أن تميل إلى جِنَانى * لَعَمْرُكَ قد عدلت عن السدادِ

وودى فيك لو تدرى قديمٌ * ويوم ألستُ تشهد بانفرادى

وهل رب سواى فترتجيه * غداً ينجيك من كُرَبٍ شِدَادِ

فوصف العجز عمَّ الكون طرًّا * فمفتقرٌ بمفتقرٍ ينادى

فبى قد قامت الأكوان طراً * وأظهرت المظاهر من مرادى

أفى دارى وفى مِلْكى ومُلْكى * تُوَجِّه للسِّوَى وجه اعتمادى
فحدِّق أعين الإيمان وانظر * ترى الأكوان تؤذن بالنفادِ
فمن عدمٍ إلى عدمٍ مصير * وأنت إلى الفنا لا شك غادِ
وها خُلَعى عليك فلا تزلها * وصن وجه الرجاء عن العبادِ
ببابى أوقف الآمال طراً * ولا تأتى لحضرتنا بزادِ
ووصفك فالزَمَنْه وكن ذليلاً * ترى منى المنى طوع القيادِ
وكن عبداً لنا والعبد يرضى * بما تقضى الموالى من مرادِ
أأستر وصفك الأدنى بوصفى * فتجزى ذاك جهلاً بالعنادِ؟
وهل شاركتنى فى الملك حتى * غدوت منازعى والرشد بادى
فإن رمت الوصول إلى جِنَانى * فهذى النفس فاحذرها وعادى
وخض بحر الفناء عسى ترانا * وأعددنا إلى يوم المعادِ
وكن مستمطراً منا لتلقى * جميل الصنع من مولىً جوادِ
ولا تشهد إلى أحد سوانا * فما أحد سوانا اليوم هادِ[1]

---

(١) الأبيات من بحر الوافر.

تنبيه وإعلام

اعلم أن التدبير على قسمين: تدبير محمود، وتدبير مذموم، فالتدبير المذموم هو كل تدبير ينعطف على نفسك بوجود حظها لا لله قياماً بحقه، كالتدبير في تحصيل معصية أو في حظٍ بوجود غفلة، أو طاعةٍ بوجودِ رياءٍ وسمعة، ونحو هذا، وذلك كله مذموم لأنه إما موجب عقاباً أو موجب حجاباً، ومن عرف نعمة العقل استحى من الله أن يصرف عقله إلى تدبير ما لا يوصله إلى قربه ولا يكون سبباً لوجود حبه، والعقل أفضل ما مَنَّ الله به على عباده لأنه سبحانه خلق الموجودات وتفضل عليها بالإيجاد وبدوام الإمداد، فهما نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولا بد لكل مكوَّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، وربما يفهم من ههنا قوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] لكن لما اشتركت الموجودات في إيجاده وإمداده أراد الحق سبحانه أن يميز بعضها على بعض ليظهر سعة تعلقات إرادته واتساع مشيئته، فميز بعض الموجودات بالنمو كالنبات والحيوان البهيم والآدمي، وظهرت القدرة فيه ظهوراً أجلى من ظهورها في الموجودات الغير نامية، فلما اشتركت هذه الثلاثة في النمو أفرد الحيوان الآدمي بوجود الحياة فشارك الآدمي في ذلك الحيوان البهيم، وظهرت قدرته فيه ظهوراً أجلى من ظهوره في الناميات، فأراد أن يميز الآدمي عنه فأعطاه العقل وفضله بذلك على الحيوان وكمل به نعمته على الإنسان، وبالعقل ووفوره وإشراقه ونوره تتم مصالح الدنيا والآخرة، فَصَرْفُ نعمة العقل إلى تدبير الدنيا التي لا قدر لها عند الله كفرٌ لنعمة العقل، وتوجهه إلى الاهتمام بإصلاح شأنه في معاده قياماً بوجود شكر المحسن إليه والمفيض من نوره عليه كان أحق به وأحرى وأفضل وأوفى، فلا تصرف عقلك الذي مَنَّ به عليك في تدبير الدنيا التي هي كما أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله:

«الدنيا جيفة قذرة»[١] وكما قال للضحاك: «**ما طعامك؟**» قال: اللحم واللبن يا رسول الله قال: «**ثم يعود إلى ماذا؟**» قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: «**فإن الله جعل ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا**»، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»، ومثل من صرف عقله فى تدبير الدنيا التى هذه الصفات صفاتها كمثل من أعطاه الملك سيفاً عظيماً قدره، مفخماً أمره، لم يسمح لكثير من رعاياه بمثله ليقاتل به أعداءه ويتزين بحمله، فعمد أخذ هذا السيف إلى الجيَف، فجعل يضربها حتى تَفلَّل[٢] ضياه، وكَلَّ شَبَاهُ[٣] وتغير حسنه وسناه[٤]، فجدير إذا اطلع الملك على هذه الحالة أن يأخذ السيف منه ويعظم عقوبته على سوء أفعاله وأن يمنعه من وجود إقباله.

فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين: تدبير محمود وتدبير مذموم، فالتدبير المحمود هو ما كان تدبيراً لما يقربك إلى الله، كالتدبير فى براءة الذمة من حقوق المخلوقين إما وفاءً وإما استحلالاً[٥]، وتصحيح التوبة إلى رب العالمين، والفكرة فيما يؤدى إلى قمع الهوى المُرْدِى والشيطان المُغْوِى، وكل ذلك محمود لا شك فيه، ولأجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «**فكرة ساعةٍ خير من عبادة سبعين سنة**».

---

(١) وفى رواية: «الدنيا حلوة خضرة» أى: حلوة من حيث غرورها للناس ودعوتهم لهم إلى تحصيلها من حلٍ أو من حرامٍ، وهى إن حصلت بغير وجهها وبغير ما يرضى الله تعالى كانت جيفةً قذرةً، وكذلك إذا كانت سبباً فى هلاك صاحبها وفساده، فلا تعارض بين الروايتين.

(٢) فى المخطوط (تفللت) والصحيح بغير التاء، من قوله: (تفللت مضارب السيف) أى: تكسرت. انظر "مختار الصحاح".

(٣) قوله: (شَبَاهُ) أى: حدُه، فإن (الشباة) هى حد كل شيءٍ. انظر "القاموس المحيط".

(٤) أى: بريقه.

(٥) بأن يستحلهم من المظالم والغيبة ونحوها ويطلب عفوهم.

والتدبير للدنيا على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا، وتدبير الدنيا للآخرة، فتدبير الدنيا للدنيا هو أن تدبر فى أسباب جمعها افتخاراً بها واستكباراً، وكلما زيد فيها شيئاً ازداد غفلةً واغتراراً، وأمارة ذلك أن تشغله عن الموافقة وتؤدى به إلى المخالفة، وتدبير الدنيا للآخرة كمن يدبر المتاجر ليأكل منها حلالاً وليُنْعِم منها على ذوى الفاقة إفضالا وليصون بها وجهه عن الناس إجمالاً.

وأمارة من طلب الدنيا لله عدم الاستكبار والادخار، والإسعاف منها والإيثار، وللزاهد فى الدنيا علامتان: علامة فى فقدها، وعلامة فى وجدها، فالعلامة التى فى وجدها الإيثار منها، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها، فالإيثار شكرٌ لنعمة الوجدان، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان، وذلك ثمرة الفهم عن الله والعرفان؛ لأن الحق سبحانه كما قد تنعَّم بوجودها كذلك قد تنعَّم بصرفها، بل نعمته فى صرفها أتم.

قال سفيان الثورى[1] – رضى الله عنه: لَنعمةُ الله علىَّ فيما زوى عنى من الدنيا أتم من نعمته علىَّ فيما أعطانى منها.

وقال الشيخ أبو الحسن: رأيت الصدِّيق – رضى الله عنه – فى المنام فقال: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدرى، قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد، فقد تبين من هذا أن ليس كل طالبٍ للدنيا مذموماً، بل المذموم مَنْ طلبها لنفسه لا لربه، ولدنياه لا

---

(١) الإمام سفيان الثورى: أمير المؤمنين فى الحديث، ولد – رضى الله عنه – سنة سبعٍ وتسعين، وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمسٍ وخمسين ومائة، وتوفى بها سنة إحدى وستين ومائة، وكان – رضى الله عنه – عالم الأمة وعابدها وزاهدها، وكان يقول: لا ينبغى للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل فى الأدب عشرين سنة، وكان يقول: إذا فسد العلماء فمن يصلحهم؟ وفسادهم بميلهم إلى الدنيا، وإذا جرَّ الطبيب الداء إلى نفسه فكيف يداوى غيره؟ وكان يقول: من تصدر للعلم قبل أن يُحتاج إليه أورثه ذلك الذل. "الطبقات الكبرى" للإمام الشعرانى (جـ١ صـ٨٢: صـ٨٦)

لأخراه، فالناس إذاً على قسمين: عبد طلب الدنيا للدنيا، وعبد طلب الدنيا للآخـرة. وسمعت أبا العباس – رضى الله عنه – يقول: العارف لا دنيا له؛ لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه، وعلى ذلك تُحمل أحوال الصحابة – رضى الله عـنهم – والسـلف الصالحين؛ فكل ما دخلوا فيه من أسباب الدنيا فهم بذلك إلى الله متقربـون وإلـى رضاه متسببون، لا قاصدون بذلك الدنيا وزينتها ووجود لذتها، وبذلك وصفهم الحق سبحانه بقوله: **﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾** [الفتح:٢٩] وقال فى الآية الأخرى: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾** [النور:٣٦، ٣٧]، وبقوله سبحانه: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾** [الأحـزاب:٢٣]، ونظائر هذه الآيات، وما ظنك بقومٍ اختارهم الله لصحبة رسوله ولمواجهة خطابـه فى تنزيله، فما من أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة فى عنقه مِنَنٌ لا تحصى وأيادٍ لا تنسى؛ لأنهم هم الذين حملوا إلينـا عـن رسـول الله ﷺ الحكمـة والأحكام، وبينوا الحلال والحرام، وفهموا الخاص والعام، وفتحوا الأقاليم والـبلاد وقهروا أهل الشرك والعناد، وبحقٍّ قال رسول الله ﷺ: «**أصحابى كـالنجوم بـأيهم اقتديتم اهتديتم**»، وقد وصفهم فى الآية الأولى بأوصاف إلى أن قـال: **﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾** دل ذلك من قوله سبحانه وهو المطلع على أسرار العالَم[1] فى سرهم وإجهارهم أنهم ما ابتغوا بما قالوه[2] من الدنيا ولم يقصدوا بذلك إلا وجه الله الكريم وفضله العميم، وقد قال سبحانه فيهم: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**

---

(١) أى: أهل العالَم.

(٢) أى: تناولوه منها.

رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨]، فقد أخبر سبحانه أنهم لا يريدون سواه ولا يقصدون إلا إياه، وقوله فى الآية الأخرى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أنه قد طَهَّر أسرارهم وكمَّل أنوارهم؛ فلذلك لا تأخذ الدنيا من قلوبهم ولا تخدش وجه إيمانهم، وكيف تأخذ الدنيا من قلوب ملأها بحبه، وأشرق فيها أنوار قربه؟ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء:٦٥] فلو كان للدنيا على قلوبهم سلطان لكان للشيطان على قلوبهم أيضاً؛ إذ لا يمكَّن الشيطان أن يصل إلى قلوب أشرقت فيها أنوار الزهد وكنست من أوساخ الرغبة، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أى: ليس لك ولا لشىء من الأكوان على قلوبهم سلطان؛ لأن سلطان عظمتى فى قلوبهم يمنعهم أن يكون على قلوبهم سلطان لشىء دونى، فأثبت الحق سبحانه لهم فى هذه الآية أنه لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ولم ينف عنهم أنهم لا يتجرون ولا يبيعون، بل فى الآية ما يدل على جواز البيع والتجارة من فحوى الخطاب إذا دبرته[1] تدبير ذوى الألباب، ألم تسمع قوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾ [الأنبياء:٧٣]؟ فلو نهاهم عن الغنى لنهاهم عن السبب المؤدى إليه وهو التجارة والبيع[2]، ألا ترى أنه قال: ﴿وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾؟ فإيجابه الزكاة عليهم دليل على أن هؤلاء الرجال التى هذه الأوصاف أوصافهم قد يكون منهم أغنياء ولا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا فيه بحقوق مولاهم.

قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان بن عفان – رضى الله عنه – عند خازنه يوم قتل مائة ألف وخمسون ألف دينار وألف ألف درهم، وخلَّف ضياعة سراويس وخيبر ووادى القرى ما قيمته مائتا ألف دينار، وبلغ ثمن مال الزبير خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس وألف مملوك، وخلَّف عمرو بن العاص ثلاثمائة ألف دينار،

---

(١) فى المخطوط (تدبيره)، والمثبت الصحيح.

(٢) لأن من لازم القدرة على إخراج الزكاة تحصيل المال، وهو يتم بالتجارة والبيع.

وغِنَى عبد الرحمن بن عوف – رضى الله عنه – أشهر من أن يذكر، وكانت الدنيا فى أكفهم لا فى قلوبهم، صبروا عليها حين فقدت وشكروا الله عليها حين وجـدت، وإنما ابتلاهم الحق بالفاقة فى أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم وتطهَّرت أسـرارهم فبدلها لهم حينئذ؛ لأنهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت آخذةً منهم، فلما أعطوهـا بعد التمكين والرسوخ فى التيقن تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا قول الله سبحانه: ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ [الحديد:٧]، ومن ههنا نفهم منعهم عن الجهاد فى أول الأمر، وقول الله سبحانه لهم: ﴿**فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [البقرة:١٠٩]؛ لأنه لو أتيح لهم الجهاد فى أول الإسلام فلعل الذى هو حديث عهد بالإسلام لو أطلق لهم الجهاد أن يكون انتصاره لنفسه من حيث لا يشعر حتى كان على – رضى الله عنه – إذا ضرب أمهل حتى تبرد تلك الضربة ثم يضـرب بعد ذلك خشية أن يضرب عقبها فتكون فى ذلك مشاركة من حظه، وذلك لمعرفتـه – رضى الله عنه – بدسائس النفوس وكمائنها وعظيم حراستهم لقلوبهم وتخلـيص أعمالهم، وإشفاقهم أن يكون فى عملهم شىء لم يُرَدْ به وجه الله تعالى، فكانت الدنيا فى أيدى الصحابة لا فى قلوبهم، ويدلك على ذلك خروجهم عنها وإيثارهم بها، وهم الذين قال الحق سبحانه فيهم: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِـمْ خَصَاصَـةٌ**﴾ [الحشر:٩] حتى إنه أهدى لإنسان منهم رأس شاة فقال: فلانٌ أحق بها، ثم قال كذلك الآخذ لها، فمازالوا يتهادونها إلى أن عادت للذى أهداها أولاً بعد أن طافـت علـى سبعة أو نحوهم، ويكفيك فى ذلك خروج عمر – رضى الله عنه – عن نصف ماله، وخروج أبى بكر – رضى الله عنه – عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف عن سبعمائة بعير موفَّرة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان – رضى الله عنـه – جيش العسرة إلى غير ذلك من أفعالهم وسَنِىّ أحوالهم، وتضمنت الآيـة الأخـرى وهى قوله سبحانه: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَـى نَحْبَـهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب:٢٣] الإخبار عنهم بسر الصدق الذى لا يطلع عليه أحد إلا الحق سبحانه وتعالى، وذلك ثناء عظيم وفخـر جسـيم؛ لأن

ظواهر الأفعال قد تلتبس فيها الأحوال فيما يرجع إلى علم العباد، فتضمنت الآيات التزكية لظواهرهم وسرائرهم وإثبات محامدهم ومفاخرهم.

فقد تبين من هذا أن تدبير الدنيا على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا كما هو حال أهل القطعة الغافلين، وتدبير الدنيا للآخرة كحال الصحابة المكرمين والسلف الصالحين.

ويدلك على ذلك قول عمر - رضى الله عنه - إنى لأجهز الجيش وأنا فى صلاتى؛ لأن تدبير عمر - رضى الله عنه - على المعاينة والمواجهة، فهو إذاً تدبير لله، فلذلك لم يكن قاطعاً للصلاة ولا منقصاً من كمالها، فإن قلت: قد زعمت أن ليس منهم من يريد الدنيا، وأنزل الحق سبحانه فى شأنهم يوم أحد: **﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾** [آل عمران:١٥٢] حتى قال الصحابة - رضى الله عنهم: ما كنا نظن أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزل قوله سبحانه: **﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾**.

فاعلم - وفقك الله للفهم عنه وجعلك من أهل الاستماع منه - أنه يجب على كل مؤمن أن يظن فى الصحابة الظن الجميل، وأن يعتقد فيهم الاعتقاد الفضيل، وأن يلتمس لهم أحسن المخارج فى أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم فى حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته؛ لأن الحق سبحانه لما زكاهم تزكيةً مطلقةً لم يقيدها بزمنٍ دون زمنٍ، وكذلك تزكية الرسول ﷺ بقوله: **«أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»**

وعن هذه الآية جوابان:

أحدهما:

منكم من يريد الدنيا للآخرة، كالذين أرادوا الغنيمة ليعاملوا الله بما يأخذونه منها بذلاً وإيثاراً، ومنكم من لم يكن مراده ذلك، إنما كان مراده تحصيل فضل الجهاد لا غير، فلم يلوِ على الغنائم ولم يلتفت إليها، فمنهم الفاضل ومنهم الأفضل ومنهم الكامل ومنهم الأكمل.

الجواب الثانى:

أن السيد يقول لعبده ما شاء، وعلينا أن نتأدب مع عبده لثبوت نسبته منه، فليس كل ما خاطب السيد به عبده ينبغى أن يثبته العبد ولا أن يخاطبه به؛ إذ للسيد أن يقول لعبده ما شاء تحريضاً لعبده وتنشيطاً لهمته وقصده، وعلينا أن نلزم حدود الأدب معه، وإن تصفحت الكتاب العزيز وجدت فيه كثيراً، منها سورة عبس حتى قالت عائشة – رضى الله عنها: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحى لكانت هذه السورة، فقد تقرر من هذا أنه ليس إسقاط التدبير الممدوح ترك الدخول فى أسباب الدنيا والفكرة فى مصالحها ليستعين بذلك على الطاعة لمولاه والعمل لأخراه، وإنما التدبير المنهى عنه هو التدبير فيها لها، وعلامة ذلك أن يعصى الله من أجلها وأن يأخذها كيف كان من حِلّها ومن غير حِلّها.

فائدة:

اعلم أن الأشياء إنما تذم وتمدح بما تؤدى إليه، فالتدبير المذموم ماشغلك عن الله وعطَّلك عن القيام بخدمته وصدَّك عن معاملة الله، والتدبير المحمود هو ما ليس كذلك مما يؤدى بك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله، وكذلك الدنيا ليست تذم بلسان الإطلاق ولا تمدح كذلك، وإنما المذموم ما شغلك عن مولاك ومنعك الاستعداد لأخراك، كما قال بعض العارفين: كل ما شغلك عن الله من أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهو عليك مشئومٌ، والممدوح ما أعانك على طاعته وأنهضك إلى خدمته، وبالجملة ما وقع المدح به فهو ممدوح فى نفسه، وما وقع الذم به فهو مذموم فى نفسه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**الدنيا جيفةٌ قذرةٌ**» وقال ﷺ: «**الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً**» وقال ﷺ: «**إن الله سبحانه جعل ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا**».

فهذه الأحاديث تقتضى ذمها وتنفير العباد عنها، وجاء عنه ﷺ: «**لا تسبوا الدنيا، فنِعمَتْ مطيَّة**[1] **المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر**» فالدنيا التى لعنها رسول الله ﷺ هى الدنيا الشاغلة عن الله، ولذلك استثنى فى الحديث فقال: «**إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً**» فبين عليه السلام أن هذا ليس من الدنيا، وقوله: «**لا تسبوا الدنيا**» أى: التى توصلكم إلى طاعة الله، ولذلك قال عليه السلام: «**فنِعْمَتْ مطية المؤمن**» فمدحها من حيث كونها مطية لا من حيث إنها دار اغترار ووجود أوزار، وإذ قد علمت هذا فقد فهمت أن إسقاط التدبير ليس هو الخروج عن الأسباب حتى يعود الإنسان ضيعة ويكون كَلاًّ على الناس فيجهل حكمة الله فى إتيان الأسباب وارتباط الوسائط، وقد جاء عن عيسى – عليه السلام – أنه مر بمتعبد فقال له: من أين تأكل؟ قال: أخى يطعمنى، قال: أخوك أعبد منك؛ أى: أخوك وإن كان فى سوقه أعبد منك؛ لأنه الذى أعانك على الطاعة وفرغك إليها، وكيف يمكن أن ننكر الدخول فى الأسباب بعد أن جاء قوله سبحانه: ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقوله سبحانه: ﴿**وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ**﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله عليه السلام: «**أحلُّ ما أكل المؤمن كسب يمينه، وإن داوود نبى الله كان يأكل من كسب يمينه**» قال عليه السلام: «**أفضل الكسب عمل الصانع بيده إذا نصح**»[2] قال عليه السلام: «**التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة**» فكيف يمكن أحداً بعد هذا أن يذم الأسباب؟ لكن المذموم منها ما شغلك عن الله وصدَّك عن معاملته، ولو تركت الأسباب وغفلت عن الله بالتجريد كنت مذموماً أيضاً، وليست الآفات داخلة على المتسببين فحسب، بل قد تدخل على المتجردين كما تدخل على المتسببين ﴿**لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ**﴾ [هود:٤٣] بل قد يكون دخولها على المتجردين أشد؛ إذ الآفات الداخلة على

---

(١) المطِيَّة: ما يركب من الدواب، تشبيهاً للدنيا بذلك فى الوصول للمقاصد المرادة.

(٢) أى: إذا كان أميناً فى صناعته يؤديها على وجهها متقناً لها.

المتسببين دخولٌ فى الدنيا مع عدم الدعوى منهم، ظاهرهم كباطنهم، مع اعتـرافهم بالتقصير ومعرفتهم بفضل المتفرغين لطاعة الله عليهم، وآفات المتجـردين ربمـا كانت عجباً أو كبراً أو رياءً أو تصنعاً أو تزيناً للخلق بطاعة الله استجلاباً لما فـى أيديهم[١]، وقد يكون اعتماداً أو استناداً إلى الخلق، وأمارة ذلك ذمه للنـاس إذا لـم يكرموه، وعتبه عليهم إذا لم يخدموه، فالمنغمس فى الأسباب مع الغفلة أحسن حالاً من هذا، حَسَّنَ الله منا النيات وطهَّر نفوسنا من الآفات بفضله وكرمه.

(١) وهذا حاصل فى كثير ممن تصدروا اليوم للدعوة والخطابة والتدريس بالمساجد حتى باتوا يطمعون فيما فى أيدى الناس لما أنَّ الناس ينظرون لهم على أنهم صالحون عابـدون أوقفـوا حياتهم على الطاعة، فراحوا يبيعون دينهم بدنياهم.

فصل

لعلك تفهم من هذا الكلام أن المتجرد والمتسبب فى رتبةٍ واحدةٍ، وليس الأمر كذلك، ولكن يجعل الله مَنْ تفرغ لعبادته وشغل أوقاته به كالداخل فى الأسباب ولو كان فيها متقياً، فالمتسبب والمتجرد إذا استوى مقامهما من حيث المعرفة بالله فالمتجرد أفضل وما هو فيه أعلى وأكمل.

لذلك قال بعض العارفين: مثل المتسبب والمتجرد كعبدين للملك قال لأحدهما: اعمل وكل كسب يدك، وقال الآخر: الزم أنت حضرتى وخدمتى وأنا أقوم لك بما تريد، فهذا قدره عند السيد أجلُّ، وصنعه به ذلك على العناية به أدلُّ، ثم إنه قلَّما يسلم من المخالفات أو يصفو لك من الطاعات مع الدخول فى الأسباب لاستلزامها لمعاشرة الأضداد ومخالطة أهل الغفلة والعناد، وأشد ما يعينك على الطاعات رؤية المطيعين، وأشد ما يدخل بك فى الذنب رؤية المذنبين، كما قال عليه السلام: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرينٍ بالمقارن يقتدى[1]

والنفس من شأنها التشبه والمحاكاة والتزين بصفات من قارنها والمضاهاة، فصحبتك للغافلين معونة لها على وجود الغفلة؛ إذ الغفلة ملائمة لها من أصل الوضع، فكيف إذا انضم إلى ذلك سبب مخالطة الغافلين؟ وقد تجد من نفسك أيها الأخ – وفقك الله – أنه لا تستوى حالة خروجك من منزلك وعودك إليه، أنت فى حين خروجك تغلب عليك الأنوار وشرح الصدر والعزم على الطاعة والزهد فى الدنيا، فتجدك إذا رجعت لست كذلك ولا فيما هنالك، وما ذلك إلا دنس المخالفة وانغماس القلوب فى ظلمة الأسباب، ولو كانت الأسباب والمعاصى إذا ذهبت ذهب أثرها لم تعوق القلوب عن المسير إلى الله بعد اتصالها ووجود زوالها، وإنما ذلك

---

(١) البيت من بحر الطويل، ووزنه: (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) مرتين.

كالنار، فربما انقضى الاتّقاد وبقى السَّواد، ويحتاج المتسبب إلى يسير علم وتقوى، فالعلم يعلم به الحلال والحرام، والتقوى تصده عن ارتكاب الآثام، فأما حاجته إلـى العلم فلأنه يحتاج إلى الأحكام المتعلقة بالمعاملة بيعاً وسَلَماً[١] وصَرْفاً وما يتعلـق بذلك مع ما يحتاج إليه من أحكام الواجبات والفروض المعينات.

(١) السَّلَم: عقد بيع يوجب المِلْك للثمن عاجلاً، وللسلعة آجلاً (عقود التوريـدات). التعريفـات "للجرجانى" مع زيادةٍ وتصرف.

تنبيه وإعلام

أمور ينبغى للمتسببين أن يلتزموها:

الأول:

ربط العزم مع الله قبل الخروج من المنزل على العفو عن المتسببين؛ إذ الأسواق محل المخاصمة والمقاولة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضَمْضَمْ؟ كان إذا خرج من بيته قال: اللهم إنى تصدقت بعرضى على المسلمين**».

الثانى:

أن يتوضأ ويصلى قبل خروجه ويسأل الله السلامة فى مخرجه، ذلك فإنه لا يدرى ماذا يقضى عليه، وأن الخارج للأسواق كالخارج إلى المصافّ، فينبغى للمؤمن أن يلبس من الاعتصام بالله والتوكل على الله دروعاً صائنةً تقيه سهام الأعداء ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران:١٠١]، ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣].

الثالث:

ينبغى له إذا خرج من منزله أن يستودع الله أهله ومسكنه وما فيه فإنه حرى أن يحفظ ذلك عليه، وليذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف:٦٤]، وقوله عليه السلام: «**اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل**» فإنه إذا استودعهم الله فحرى أن يرجع فيجدهم كما يحب ويحبون، سافر بعضهم وكانت زوجته حاملاً، فحين سافر قال: اللهم إنى أستودعك ما فى بطنها، فتوفيت زوجته فى غيبته، فلما قدم من سفره سأل عنها فقيل: توفيت وهى حامل، فلما كان الليل رأى نوراً فى المقابر فتبعه فإذا هو فى قبرها، وإذ

بالصبى يرضع من ثديها، فهتف به هاتف: يا هذا استودعتنا الولد فوجدته، أما لو استودعتنا أمه لوجدتهما جميعاً.

الرابع:

يستحب له إذا خرج من منزله أن يقول: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن ذلك مؤيسٌ للشيطان منه.

الخامس:

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وليجعل ذلك شكراً لنعمة القوة والتقوى اللذين وُهِبَهُمَا، وليذكر قول الله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج:٤١] فمن أمكنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحيث لا يصل إليه أذىً فى نفسه أو عرضه أو ماله فهو ممن مكّن فى الأرض، والوجوب متعلق به، وإن كان لا يصل إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالأذى قبل ذلك أو يغلب على ظنه وقوع ذلك بعده سقط عنه الوجوب، والإنكار حينئذ جائز[١].

السادس:

أن تكون مشيته بالسكينة والوقار لقوله سبحانه: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان:٦٣] وليس ذلك خاصاً بالمشى، بل المطلوب منك أن تكون أفعالك كلها تقارنها السكينة ويلازمها الثبات[٢].

---

(١) فقد يكون من أصحاب العزائم فيجسر على الأمر والنهى محتسباً الأذى فى طريق ذلك، وقد يجنح إلى الرخصة فى ذلك فيصون نفسه وماله وعرضه عن الأذى إيثاراً للسلامة، فلا شىء عليه حينئذ.

(٢) فى المخطوط (الثبت) والصحيح المثبت.

السابع:

أن يذكر الله فى سوقه؛ فإنه قد جاء عنه عليه السلام: «**ذاكر الله فى السوق كالحى بين الموتى**» وكان بعض السلف يركب بغلته ويأتى إلى السوق فيذكر الله ثم يرجع لا يخرجه إلا ذلك.

الثامن:

أن لا يشغله ما هو فيه من المبايعة والمعاش عن النهوض إلى الصلاة فى أوقاتها جماعةً؛ لأنه إن ضيعها اشتغالاً بسببه استوجب المقت من ربه ورفع البركة من كسبه، ولْيستحِ أن يراه الحق سبحانه مشغولاً بحظوظ نفسه عن حقوق ربه، وقد كان بعض السلف يكون فى صنعته فربما رفع المطرقة فسمع المؤذن فرماها من خلفه؛ لئلا يكون ذلك شغلاً بعد أن دعى إلى طاعة ربه، وليذكر إذا سمع المؤذن: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ**﴾ [الأحقاف:٣١] وقوله تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال:٢٤] وقوله سبحانه: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم**﴾ [الشورى:٤٧] وقالت عائشة – رضى الله عنها: **كان رسول الله ﷺ يكون فى بيته يخصف النعل**[١] **ويعين الخادم حتى إذا نودى بالصلاة قام كأنه لا يعرفنا.**

التاسع:

ترك الحلف والإطراء لسلعته، فقد جاء فى ذلك الوعيد الشديد، وقد قال عليه السلام: «**التجار هم الفجار إلا من بر وصدق**».

العاشر:

كف لسانه عن الغيبة، وليذكر قوله سبحانه: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾ [الحجرات:١٢] وليعلم أن السامع للغيبة أحد المغتابين وإن اغتيب بحضرته فلينكر، فإن لم يسمع منه فليقم، ولا يمنعه الحياء من الخلق من القيام بحق المَلِكِ الحق، فالله أولى أن يُسْتَحَى منه وأن يُرْضَى، ﴿**وَاللّهُ**

---

(١) خصف النعل: خرزها. "مختار الصحاح".

وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢]، وقد جاء عنه عليه السلام" «**إن الغيبة أشد من ستة وثلاثين زنية فى الإسلام**» قال الشيخ أبو الحسن: أربعـة آداب إذا خـلا الفقير المتسبب منها فلا تعبأنَّ به وإن كان أعلم البرية: مجانبة الظَّلَمة، وإيثار أهل الآخرة، ومواساة ذوى الفاقة، وملازمة الخمس فى الجماعة، وصدق – رضـى الله عنه – فإن مجانبة الظَّلَمة تكشف نور الإيمان، وبمجانبتهم تكون أيضاً النجاة مـن عقوبة الله، لقوله سبحانه: **﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾** [هود:١١٣] وقوله: وإيثار أهل الآخرة أن يكون الفقير المتسبب الغالب عليه التردد إلى أوليـاء الله والاقتباس منهم ليتقوى بذلك على كُدْرَة الأسباب، فتنفح عليه نفحاتهم وتظهـر عليه بركاتهم، وربما وصلت إليه فى سببه أمدادهم، وحفظه من المعصـية ودُهـم واعتقادُهم، وقوله: ومواساة ذوى الفاقة؛ وذلك لأنه يجب على العبد أن يشكر نعمة الله عنده، وإذا فتح لك فى الأسباب فاذكر من أُغْلقت عليه أبوابهـا، واعلـم أن الله اختبر الأغنياء بوجود أهل الفاقة كما اختبر أهل الفاقة بوجود الأغنيـاء **﴿وَجَعَلْنَـا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾** [الفرقان:٢٠] ووجود أهل الفاقة نعمة من الله على ذوى الغنى، إذ وجدوا من يحمل عنهم أوزارهم إلى الدار الآخرة، وإذ وجدوا من إذا أخذ كان[1] مثل أخذ الله منك، والله هو الغنى الحميد، فلو لم يخلق الفقراء فكيف كان يتقبل منك صدقاتك؟ ومن كنت تجد يأخذ هِبَاتك؟ ولذلك قال ﷺ: «**من تصدق بصدقة من كسبٍ طيبٍ – ولا يقبل الله إلا طيباً – كان كأنما يضـعها فى كف الرحمن يربيها له كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله**[2] **حتى إن اللقمة لتعود مثل جبل أحد**» ولذلك كان من أشراط الساعة أن لا يجد الرجل من يقبل صـدقته. وقوله: وملازمة الخمس فى الجماعة؛ وذلك أن الفقير المتسبب لما فاتـه التخلـى

---

(١) زيادة ليست فى المخطوط لصحة المعنى.

(٢) الفَلُوُّ: بتشديد الواو: المُهْر (ولد الفرس الذكر). والفصيل: ولد الناقة إذا فُصِل عـن أمـه. انظر "مختار الصحاح".

والتجرد لعبادة الله فيدخل مدخل الخصوص بدوام الخدمة وملازمة الموافقة، فينبغى أن لا تفوته الخمس فى الجماعة ولتكن[1] ملازمته لها سبباً لتجديد الأنوار وموجباً لوجود الاستبصار، وقد قال عليه السلام: «**تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة**» وفى الحديث الآخر: «**بسبعة وعشرين جزءاً**»، ولو شرع للعباد أن يصلى كل منهم فى حانوته[2] وداره لتعطلت المساجد التى قال فيها الحق سبحانه: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾ [النور:٣٦] ولأن فى ملازمة الصلاة فى جماعة اجتماع القلوب وتناصرها والتئامها ورؤية المؤمنين واجتماعهم، وقد قال ﷺ: «**يد الله مع[3] الجماعة**» ولأن الجماعة إذا اجتمعت انبسطت بركات قلوبهم على من حضرهم وامتدت أنوارهم لمن شهدهم، وكان اجتماعهم ونظامهم كالجيش إذا اجتمع وتضامَّ كان ذلك سبباً فى وجود نصرته، وهو أحد التأويلين فى قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ [الصف:٤].

---

(١) فى المخطوط (وليكون) والمثبت الصحيح.

(٢) الحانوت: الدُّكَّان.

(٣) فى المخطوط (على) والمشهور من لفظ الحديث (مع) كما هو مثبت.

استلحاق

وعليك أيها المؤمن بغضِّ طرفك فى حين خروجك إلى سببك إلى حين ترجع، ولتذكر قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، وليعلم أن بصره نعمة من الله عليه، فلا تكن لنعم الله كفوراً، وأمانة الله له فلا يكن لها خائناً، ولتذكر قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤] فإذا أردت أن ترى فاعلم أنه يرى.

وليعلم أنه إذا غض بصره فتح الله بصيرته جزاءً وفاقاً، فمن ضَيَّق على نفسه فى دائرة الشهادة(١) وسع الله عليه فى دائرة الغيب(٢).

وقال بعضهم: ما غض أحد بصره عن محارم الله إلا أوجده الله نوراً فى قلبه يجد حلاوة ذلك.

---

(١) يعنى: المشاهدة وإطلاق النظر إلى الحرام أو ما لا جدوى فى النظر والتأمل فيه.

(٢) يعنى: فى نزول اللطائف النورانية فى القلوب وانفتاح عين البصيرة وحصول بعض الغيب بواسطة الحق كشفاً فى القلب.

انعطافٌ

اعلم أن التدبير مع الله عند أولى البصائر إنما هو مخاصمة للربوبية، وذلك لأنه إذا أنزل بك أمراً تريد رفعه أو رفع عنك أمراً تريد وضعه، أو هممت بأمر أنت عالم أنه متكفل به لك وقائم به إليك، كان ذلك منازعةً للربوبية وخروجاً عن حقيقة العبودية. واذكر ههنا قوله سبحانه: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾ [يس:٧٧] ففى هذه الآية توبيخ للإنسان لما غفل عن أصل نشأته وخاصم مُنْشِئه وغفل عن سر بدايته ونازع مبدأه، فكيف يصلح لمن خلق من نطفة أن ينازع الله فى أحكامه أو يضادده فى نقضه وإبرامه؟ فاحذر – رحمك الله – التدبير مع الله، واعلم أن التدبير من أشد حجب القلوب عن مطالعة الغيوب، وإنما التدبير للنفس ينبع من وجود الموادة لها، ولو غبت عنها فناءً وكنت بالله بقاءً لغيَّبك ذلك عن التدبير لنفسك أو بنفسك، وما أقبح عبداً جاهلاً بأفعال الله غافلاً عن حسن نظر الله! ألم تسمع قول الله سبحانه: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ**﴾ [العنكبوت:٥٢] فأين الاكتفاء بالله لعبدٍ مدبرٍ مع الله؟ فلو اكتفى بتدبير الله له لاقتطعه ذلك عن التدبير مع الله.

تنبيهٌ وإعلامٌ

اعلم أن التدبير أكثر طريانه على العباد المتوجهين وأهل السلوك من المريدين قبل الرسوخ فى اليقين ووجود القوة والتمكين؛ وذلك لأن أهل الغفلة والإساءة قد أجابوا الشيطان فى الكبائر والمخالفات واتباع الشهوات، فليس للشيطان حاجة أن يدعوهم إلى التدبير، ولو دعاهم إليه فليس هو أقوى أسبابه فيهم إنما، يدخل بذلك على أهل الطاعة والمتوجهين لعجزه عن أن يدخل من غير ذلك عليهم، فرُبَّ صاحب وِرْدٍ عطَّله عن وِرْده أو عن الحضور مع الله فيه هَمُّ التدبير والفكرة فى مصالح نفسه، ورب ذى واردٍ[١] استضعفه الشيطان فألقى إليه دسائس التدبير ليعكر عليه صفاء وقته؛ لأنه حاسد، والحاسد أشد ما يكون لك حسداً إذا صفت لك الأوقات وحسنت منك الحالات، ثم إن وساوس التدبير تَرِدُ على كل أحدٍ من حيث حالُه، فمن كان تدبيره فى تحصيل كفاية يومه أو غده فعلاجه أن يعلم أن الله قد تكفَّل له رزقه فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] وسيأتى بسط القول فى أمر الرزق بعد هذا فى بابٍ مفردٍ – إن شاء الله تعالى – ومن كان تدبيره فى دفع ضرر عدو لا طاقة له به، فليعلم أن الذى يخافه ناصيته بيد الحق سبحانه، وأنه لا يصنع إلا ما صنعه الحق فيه[٢]، وليذكر قول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ

---

(١) الوارد: كل ما يرد على العبد من المعانى الغيبية من غير تعمدٍ من العبد. انظر "المعجم الصوفى" د/ عبد المنعم الحفنى.

(٢) وليعلم أن من خاف شيئاً سلطه الله عليه، كما ورد عن سيدنا عمر – رضى الله عنه.

﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣، ١٧٤] وأصغ[1] بسمع قلبك إلى قول الله سبحانه: **﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾** [القصص:٧].

ولتعلم أن الحق سبحانه أولى من استجير به فأجار لقوله سبحانه: **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** [المؤمنون:٨٨]، وأولى من استحفظ فحفظ لقوله: **﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف:٦٤] وإن كان التدبير من أجل ديونٍ حلّت لا وفاء لها ولا صبر لأربابها فاعلم أن الذى يسَّر لك بلطفه من أعطاك هو الذى ييسر بلطفه الوفاء عنك **﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾** [الرحمن:٦٠].

وأفٍ لعبدٍ يسكن لما فى يديه ولا يسكن لما فى يد الحق له، وإن كان التدبير من أجل عائلةٍ تركتهم بعد مماتك هو الذى يقوم بهم فى حضورك وغيبتك فى حياتك، ولتسمع ما قال رسول الله ﷺ: «**اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل**» فالذى ترجوه أمامك هو الذى يرجى لما وراءك، واسمع قول بعضهم:

إن الذى وجهت وجهى له * هو الذى خلَّفت فى أهلى

لم يخفَ عنه حالهم ساعة * وفضله أوسع من فضلى[2]

ولأن الله أرحم بهم منك فلا تهتم لمن هو فى كفالة غيرك، وإن كان تدبيرك واهتمامك من أجل مرضٍ نزل بك تخاف أن تتطاول ساعاته وتمتد أوقاته فاعلم أن للبلايا والأسقام أعماراً، فكما لا يموت حيوان إلا عند انقضاء عمره كذلك لا تنقضى بلية حتى ينقضى ميقاتها، واذكر قوله سبحانه: **﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾** [الأعراف:٣٤] وكان ولد لبعض المشايخ توفى أبوه وبقى بعده فامتسك عليه أمداد الوقت، وكان لأبيه أصحاب قد تفرقوا بالعراق، ففكر أى أصحاب أبيه يقصد؟ ثم أجمع عزمه على أن يقصد أوجههم عند الناس، فلما قدم عليه أكرمه وأجل محله، ثم قال: يا سيدى وابن سيدى ما الذى جاء بك؟

---

(١) فى المخطوط بالخاء المعجمة، والصحيح المثبت.

(٢) البيتان من بحر البسيط.

قال: توقفت عليَّ أسباب الدنيا فأريد أن تتحدث لى عند أمير البلدة لعل أن يجعلني على جهة من جهاته تكون بها تمشية حالى، فأطرق الشيخ ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: ليس فى قدرتى أن أجعل أول الليل سحراً، أين أنا منك إذا وليت حكم العراقين، فخرج ولد الشيخ متغيظاً ولم يفهم ما قاله الشيخ الصالح، فاتفق أن طلب الخليفة من يعلّم ولده فدل عليه وقيل له: ولد الشيخ فلان، فأُحْضِر ليعلم ولد الخليفة، فمكث يعلم ولد الخليفة مدة التعليم وجالسه بعد ذلك حتى تكمَّلت أربعين عاماً، فتوفى الخليفة واستخلف ولده الذى كان هذا معلماً له فولاه حكم العراقين.

وإن كانت الفكرة لأجل زوجةٍ أو أمةٍ فقدتها كانت توافقك فى أحوالك وتقوم بمهمات أشغالك، فاعلم أن الذى يسرها لك فضله لم ينفذ وإحسانه لم ينقطع، وهو قدير على أن يهبك من مننه ما يزيد حسناً ومعرفةً على من فقدت، فلا تكن من الجاهلين، ووجوه التدبير كما تتعدد يتعدد علاجاتها، واستقصاء وجوهها وعلاجاتها لا سبيل إليه لانتشارها وعدم انحصارها، ومتى أعطاك الله الفهم عنه عَرَّفك كيف تصنع.

تنبيهٌ وإعلامٌ

اعلم أن التدبير إنما يكون من النفوس لوجود الحجاب فيها، ولو سلم القلب من مجاورتها وصين من محادثتها لم يطرقه طوارق التدبير.

وسمعت شيخنا أبا العباس – رضى الله عنه – يقول: إن الله سبحانه لما خلق الأرض على الماء اضطربت فأرساها بالجبال فقال: **﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾** [النازعات:٣٢]، كذلك لما خلق النفس اضطربت فأرساها بجبال العقل. انتهى كلام الشيخ أبا[1] العباس – رضى الله عنه – فأى عبد توفر عقله واتسع نوره فنزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب ووثقت بولىِّ الأسباب فكانت مطمئنة، أى خامدة ساكنة لأحكام الله ثابتة لأقداره ممدودة بتأييده وأنواره خارجة عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاها لعلمها بأنه يراها، **﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [فصلت:٥٣]، فاستحقت أن يقال لها: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** [الفجر:٢٧-٣٠].

وفى هذه الآية خصائصُ عظيمةٌ ومناقبُ لهذه النفس المطمئنة جسيمة منها: أن النفوس ثلاثة: أمَّارةٌ ولوامةٌ ومطمئنةٌ، فلم يواجه الحق سبحانه واحدةً من الأنفس الثلاثة إلا المطمئنة، فقال فى الأمارة: **﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾** [يوسف:٥٣]، وقال فى اللوامة: **﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾** [القيامة:٢]، وأقبل على هذه بالخطاب فقال: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾** [الفجر:٢٧].

الثانى:

تكنيته إياها، والتكنية فى لغة العرب تجليل فى الخطاب وفخر عند ذوى الألباب.

---

(١) هكذا فى المخطوط (أبا) على لغة لزوم الأسماء الستة للألف رفعاً ونصباً وجرًا.

الثالث:

مدحه إياها بالطمأنينة ثناءً منه عليها بالاستسلام إليه والتوكل عليه.

الرابع:

صفته هذه النفس المطمئنة، والمطمئن هو المنخفض من الأرض، فلما انخفضت بتواضعها وانكسارها أثنى عليها مولاها إظهاراً لفخارها لقوله ﷺ: «**من تواضع لله رفعه**».

الخامس:

قوله: ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ فيه إشارة إلى أنه لا يؤذن للنفس اللوامة والأمارة بالرجوع إلى الله رجوع الكرامة، إنما ذلك للنفس المطمئنة لأجل ما هى عليه من الطمأنينة قيل لها: ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ فقد أتحنا لك الدخول إلى حضرتنا والخلود فى جنتنا، فكان فى ذلك تحريض للعبد على مقام الطمأنينة، ولا يصل إليه أحد إلا بالاستسلام إلى الله وعدم التدبير معه.

السادس:

فى قوله: ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ**﴾ ولم يقل: إلى الرب ولا إلى الله، فيه إشارة إلى أن رجوعها إليه من حيث لطف ربوبيته لا إلى قهر إلهيته، فكان فى ذلك تأنيسٌ لها وملاطفةٌ وتكريمٌ ومواددةٌ.

السابع:

قوله: ﴿**رَاضِيَةً**﴾ أى عن الله فى الدنيا بأحكامه وفى الآخرة بجوده وإنعامه، فكان فى ذلك تنبيه للعبد أنه لا تحصل له الرجعى إلى الله إلا مع الطمأنينة بالله والرضا عن الله وإلا فلا.

وفى ذلك إشارة إلى أنه لا يحصل أن يكون مرضياً عند الله فى الآخرة إلا حتى يكون راضياً عنه فى الدنيا.

فإن قلب هذه الآية يقتضى أن يكون الرضا من الله نتيجة الرضا من العبد، والآية الأخرى[١] تدل على الرضا من العبد نتيجة الرضا من الله، فاعلم أن كل آية وما أثبتت، ولا خفاء فى الجمع بين الآيتين وذلك أن قوله سبحانه: ﴿رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩] يدل من وجود ترتيبه على أن الرضا من العبد نتيجة الرضا من الله، والحقيقة تقضى بذلك؛ لأنه لو لم يرض عنهم أولاً لم يرضوا عنه أبداً، والآية الأخرى تدل على أن من رضى عن الله فى الدنيا كان مرضياً عنده فى الآخرة وذلك بيِّنٌ لا إشكال فيه.

الثامن:

قوله: ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ وذلك مِدْحَةٌ عظمى لهذه النفس المطمئنة وهى أجَلُّ المِدَح والنعوت، ألم تسمع قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] بعد وصفه نعيم أهل الجنة؟! أى رضوان الله عنهم فيها أكبر من النعيم الذى هم فيه.

التاسع:

قوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ فيه بشارة عظمى للنفس المطمئنة إذ نوديت ودعيت إلى أن تدخل فى عباده، وأى عبادٍ هؤلاء؟ هم عباد التخصيص والنصر[٢] لا عباد الملك والقهر[٣]، هم العباد الذين[٤] قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء:٦٥]، وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ﴾ [الحجر:٤٠] لا[٥] العباد الآخرون الذين قال فيهم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فكان فرح هذه النفس المطمئنة بقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي

---

(١) وهى قول الله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ الآية.

(٢) وهؤلاء يسمون: عباد الرحمن.

(٣) وهؤلاء يسمون: عبيد الرحمن.

(٤) فى المخطوط (الذى) ، والصحيح المثبت.

(٥) "لا" فى هذا الموضع بمعنى "ليس".

عِبَادِي﴾ أشد من فرحها بـ:**﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**؛ لأن الإضافة الأولى إليه والإضافة الثانية إلى جنته.

العاشر:

قوله: **﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** فيه إشارة إلى أن هذه الأوصاف التى اتصفت بها النفس المطمئنة هى التى أهَّلَها إلى أن تدعى إلى أن تدخل فى عباده وإلى أن تدخل جنته، جنة الطاعة فى الدنيا والجنة المعلومة فى الدار الآخرة، والله أعلم.

فائدة:

قد تضمنت الآية وصفين كل واحد منهما يدل على هدم قواعد التدبير، وذلك أنه سبحانه وصف هذه النفس التى خصصها بهذه الخصائص التى ذكرناها بأوصافٍ منها: الطمأنينة والرضا، وهما لا يكونان إلا مع إسقاط التدبير؛ إذ لا تكون النفس مطمئنة حتى تترك التدبير مع الله ثقةً منها بحسن تدبيره لها؛ لأنها إذا رضيت عن الله استسلمت له وانقادت لحكمه وأذعنت لأمره، فاطمأنت لربوبيته وقرت بالاعتماد على إلهيته، فلا اضطراب، إذ ما أعطاها من نور العقل ثبتها، فلا حركة لها إلا حامدةً لأحكامه مفوضةً له فى نقضه وإبرامه.

فائدة:

اعلم أن سر خَلْق التدبير والاختيار ظهور قهر القهار، وذلك أنه سبحانه أراد أن يتعرف إلى العباد بقهره فخلق فيهم تدبيراً واختياراً، ثم فسح لهم بالحجبة[1] حتى أمكنهم ذلك، إذ لو كانوا فى وجود المواجهة والمعاينة لم يمكنهم التدبير والاختيار كما لا يمكن الملأ الأعلى ذلك، فلما دبر العباد واختاروا تَوجَّه بقهره إلى تدبيرهم واختيارهم فزلزل أركانه وهدم بنيانه، فلما تعرف للعباد بقهره ومراده علموا أنه القاهر فوق عباده، فما[2] خلق الإرادة فيك لتكون لك الإرادة ولكن

---

(١) الحجبة: جمع حجاب، وهو ما يحول بين العبد وبين معرفة الله تعالى.

(٢) فى المخطوط (فلما) والصحيح المثبت.

لتدحض إرادته إرادتك فتعلم أن ليس لك إرادة، كذلك لم يجعل التدبير فيك ليكـون لك وإنما جعله فيك ليدبر وتدبر فيكون ما يدبر ما لا تدبر[١].

وكذلك قيل لبعضهم: بماذا عرفت الله؟ قال: بنقض العزائم.

---

(١) أى: يكون ما تدبره أنت على غير ما دبره هو.

فصل

كنا قد وعدنا بأنا نفرد للتدبير فى شأن الرزق باباً وذلك أن أكثـر دخـول التدبير على القلوب منه، فاعلم أن سلامة القلوب من التدبير فى شأن الرزق منـةٌ عظمى لا يسلم منها إلا الموقنون الذين صدقوا الله فى حسن الثقة فاطمأنت قلـوبهم إليه وتحققوا بالتوكل عليه، حتى لقد قال بعض المشايخ: أحكموا لى[1] أمر الـرزق ولا عليكم من سائر المقامات. قال بعض المشايخ: أشد الهموم همـوم الاقتضـاء، ويبين ما قال هذا الشيخ أن الله خلق هذا الآدمى محتاجاً إلى مدد يمسك بنيته ويمـد قوته لما كانت الحرارة التى هى فيه تحلّل[2] أجزاء بدنه كان هذا الغـذاء تطحنـه المعدة فتأخذ خلاصته فيعود جزء بدنه خلقاً لما حللته الحرارة الغريزية منه[3]، ولو شاء الحق سبحانه لأغنى وجود الآدمى عن المدد الحسى وتناول الأغذيـة، ولكـن أراد الحق سبحانه أن يظهر حاجة الحيوان إلى وجود التغذية واضطراره إلى ذلـك وغناه سبحانه عن ما[4] الحيوان محتاج إليه.

فلذلك قال سبحانه: **﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾** [الأنعام:١٤] تمدَّح سبحانه بوصفين أحدهما: يُطعِم ولا يطعم غيرُه لأن كل العباد أخذ من إحسانه وأكل من رزقه وامتنانه.

والآخر: أنه لا يطعَم لأنه المقدس عن الاحتياج إلى التغذية بل هو الصـمد والصمد الذى لا يطعم، وإنما خص الحق سبحانه الحيوان بالافتقار إلى التغذية دون

---

(١) فى المخطوط (إلىَّ)، والصحيح (لى) كالمثبت.

(٢) فى المخطوط (محلل) بالميم، والمثبت أولى.

(٣) وقد ثبت حديثاً أن خلايا جسم الإنسان تتجدد كلها كل يومٍ بل كل ساعةٍ بل كل دقيقة، وتنشأ خلايا أخرى مكانها.

(٤) قوله: (ما) بمعنى (الذى) فهى موصولة.

غيره من الموجودات لأنه سبحانه وهب الحيوان من صفاته ما لو تركه من غير فاقةٍ لادَّعى أو ادُّعِى فيه[1]، فأراد الحق سبحانه وهو الحكيم الخبير أن يحوجه إلى مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك ليكون تكرار أسباب الحاجة منه سبباً لخمود الدَّعوى عنه أو فيه، ولوجه آخر أن الحق سبحانه أراد أن يجعل الحاجة لهذا النوع وهو الحيوان من الآدمى وغيره إما ليعرفه أو ليعرف به، ألا ترى قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر:١٥] فجعل الفقر إليه سبباً يؤدى إلى الوصول إليه والدوام بين يديه، ولعلك أن تفهم ههنا قوله ﷺ: «**من عرف نفسه عرف ربه**» أى من عرف نفسه بحاجتها وذلتها ومسكنتها عرف ربه بعزته وسلطانه وجوده وإحسانه إلى غير ذلك من أوصاف الكمال، لاسيما هذا النوع من الآدمى، فإن الحق سبحانه كرر فيه أسباب الحاجة وعَدَّدَ فيه أنواع الفاقة لأنه محتاج إلى صلاح معاشه ومعاده.

فافهم ههنا قوله سبحانه: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [البلد:٤] أى من أمر دنياه وأخراه، فلكرامته عند الله كرر أسباب الحاجة فيه، ألم تر أن أصناف الحيوان غنية بأصوافها وأوبارها وأشعارها عن لباس دثارها[2] وغنية بمرابطها وأوكارها عن أن تتخذ بيتاً لقرارها؟

فائدة أخرى:

وهو أن الحق سبحانه أراد أن يختبر هذا الآدمى، فأحوجه لأمور شتى لينظر أيدخل فى استحلالها بعقله وتدبيره أو يرجع إلى الله فى قسمته وتقديره؟

فائدة أخرى:

وهو أنه أراد سبحانه أن يتحبب لهذا العبد، فلما أوردت عليه أسباب الفاقة ورفعها عنه وجد العبد لذلك حلاوةً فى نفسه وراحةً فى قلبه، فأوجب ذلك له تجديد

---

(١) أى: لادعى الصمدية والاستغناء، أو ادعى الآخرون فيه ذلك.

(٢) الدِّثار: كل ما كان من الثياب فوق الشِّعار، وفى الكلام تشبيه. انظر "مختار الصحاح".

الحب إلى ربه، قال رسول الله ﷺ: «**أحبوا**[١] **الله لما يغذوكم مـن نعمـه**»، فلما تجددت النعم تجدد له من الحب بحَسْبها.

فائدة أخرى:

وهو أنه سبحانه أراد أن يُشكر، فلذلك أورد الفاقة على العباد وتولى رفعها ليقوموا له بوجود شكره وليعرفوا إحسانه وبره، قال الله سبحانه: ﴿**كُلُوا مِـن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ [سبأ:١٥].

فائدة أخرى:

وذلك أنه سبحانه أراد أن يفتح للعباد باب المناجاة، فلمـا احتـاجوا إلـى الأقوات والنعم توجهوا إليه برفع الهمم فَشَرُفُوا بمناجاته ومنحوا من هباته، ولو لم تسقهم الفاقة إلى المناجاة لم تفقهها عقول العموم من العباد، ولولا الحاجة لم يستفتح بابها إلا أهل الوداد، فصار ورود الفاقة سبباً للمناجاة، والمناجـاة شـرف عظـيم ومنصب من الكرامة جسيم، ألا ترى أن الحق سبحانه أخبر عن موسى – صلوات الله عليه – بقوله: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [القصص:٢٤]؟

قال علي – رضي الله عنه: والله ما طلب إلا خبزاً يأكلـه، ولقـد كانـت خضرة البَقْل تُرَى من شفيف صِفَاق بطنه للهُزْلة[٢].

فانظر – رحمك الله – كيف سأل من ربه ذلك لعلمه أنـه لا يملـك شـيئاً غيره، وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، يسأل الله سبحانه ما قل وجل، حتـى قال بعضهم: إنى لأسأل الله فى صلاتى حتى ملح عجينى، ولا يصدنك أيها المؤمن

---

(١) الهمزة ساقطة من المخطوط.

(٢) أى: للنحافة.

عن طلب ما تحتاج إليه من الله قلة ذلك؛ فإنه إن لم تسأل الله فى القليل لم يجدر بالعطية لك غيره[١]، والمطلب وإن كان قليلاً فقد صار لفتحه باب المناجاة جليلاً.

قال الشيخ أبو الحسن – رضى الله عنه: لا يكن[٢] همك فى دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً عن ربك، وليكن همك مناجاة مولاك.

وفى هذه الآية فوائد:

الفائدة الأولى:

وهو أن يكون المؤمن طالباً من ربه ما قل وجل، وقد ذكرناه آنفاً.

الفائدة الثانية:

أنه ﷺ نادى متعلّقا باسم الربوبية[٣] لأنه المناسب فى هذا المكان؛ لأن الرب من رباك بإحسانه وغذاك بامتنانه[٤]، فكان فى ذلك استعطاف لسيده؛ إذ ناداه باسم الربوبية التى ما قطع عنه عوائدها ولا حبس عنه فوائدها.

الثالثة:

قوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ولم يقل: إنى إلى الخير فقير وفى ذلك من الفائدة أنه لو قال: "إنى إلى الخير فقير" لم يتضمن أنه قد أنزل رزقه ولم يهمل أمره، فأتى بقوله: ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ليدل على أنه واثق بالله عالم بأنه لا ينساه، فكأنه يقول: رب إنى أعلم أنك لا تهمل أمرى ولا أمر شيءٍ مما خلقت، وأنك قد أنزلت رزقى، فسق لى ما أنزلت لى كيف تشاء على ما تشاء محفوفاً بإحسانك مقروناً بامتنانك، فكان فى ذلك فائدتان: فائدة الطلب، وفائدة الاعتراف بأن الحق سبحانه قد أنزل رزقه ولكن أبهم وقته وسببه وواسطته ليقع

---

(١) أى: لم تكن جديراً بعطاء الله لك ما هو أعظم قدراً من القليل، لأن سؤال الله تعالى فى القليل فيه عرفان بقيمة هذا القليل وتعظيم لنعم الله صغيرها قبل كبيرها.

(٢) فى المخطوط "لأن"، والصحيح المثبت كما هو فى نسخةٍ مطبوعة.

(٣) يعنى: قول سيدنا موسى – عليه السلام: "ربِّ إنى".

(٤) ومن معانى الرب: المالك، والمدبر، والمولى للنعم...

اضطرار العبد، ومع الاضطرار تكون الإجابة لقوله سبحانه: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ [النمل:٦٢] ولو تعين السبب والوقت والوسائط لم يقع للعباد الاضطرار الذى وجدوه عند إبهامها، فسبحان الإله الحكيم والقادر العليم.

الرابعة:

تدل الآية على أن الطلب من الله لا يناقض مقام العبودية؛ لأن موسى ﷺ له الكمال فى مقام العبودية وبعد ذلك طلب من الله، فدل أن مقام العبودية لا يناقض الطلب، فإذا دل أن مقام العبودية لا يناقضه الطلب فكيف لم يطلب الخليل – عليه السلام – حين رمى به فى المنجنيق وتعرض له جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال عليه السلام: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، قال: سَلْه، قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فاكتفى بعلم الله به عن إظهار الطلب منه؟ فالجواب: أن الأنبياء صلوات الله عليهم يعاملون كل موطن بما يفهمون عن الله أنه اللائق به، ففهم إبراهيم – عليه السلام – أن المراد به فى ذلك الموطن عدم إظهار الطلب والاكتفاء بالعلم، فكان بما فهمه عن ربه، وكان هذا لأن الحق سبحانه أراد أن يظهر منصب سره وعنايته به للملأ الأعلى الذين لما قيل: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٣٠] فأراد الحق سبحانه أن يظهر سر قوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ يوم زُجَّ بإبراهيم – عليه السلام – فى المنجنيق كأنه يقول: يا من قال: أتجعل فيها من يفسد فيها، كيف رأيتم إبراهيم خليلى؟ نظرتم إلى ما يكون فى الأرض من صنع أهل الفساد كنمرود ومن ضاهاه من أهل العناد وما نظرتم إلى ما يكون فيها من الصلاح والرشاد كما كان من إبراهيم ومن تابعه من أهل الوداد، وأما موسى ﷺ فإنه علم أن مراد الحق سبحانه منه فى ذلك الوقت إظهار الفاقة وإبداء لسان المسألة، فقام بما يقتضيه وقته ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا**﴾ [البقرة:١٤٨] فكلٌّ على بينةٍ وهدايةٍ وتوفيقٍ من الله ورعاية.

الفائدة الخامسة:

انظر إلى طلب موسى من ربه وجود الرزق ولم يواجه بالطلب، بل اعترف بين يدى الله بوصف الفقر والفاقة، وشهد له سبحانه بالغنى لأنه إذا عرف نفسه بالفقر والفاقة عرف ربه بالغنى والملاءة[١] من عرف نفسه عرف ربه، وهذا من بسط المناجاة وهى كثيرة، فتارة يجلسك على بساط الفاقة فتناديه: يا غنى، وتارة على بساط الذلة فتناديه: يا عزيز، وتارة على بساط العجز فتناديه: يا قوى، وكذلك بقية الأسماء، فاعترف موسى ﷺ بالفقر إلى الله فكان فى ذلك تعريضاً للطلب وإن لم يطلب، وقد يكون التعرض للطلب بذكر أوصاف العبد من فقره وحاجته، وقد يكون التعرض للطلب بذكر أوصاف السيد من وجود وحدانيته، كما فى الحديث: «**أفضل دعائى ودعاء الأنبياء قبلى بعرفة[٢] لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» فجعل الثناء على الله دعاء؛ لأن فى الثناء على السيد الغنى بذكر أوصاف كماله تعرضاً لفضله ونواله، كما قيل:

كريمٌ لا يغيره صباحٌ * عن الخُلُقِ الكريم ولا مساءُ

إذا أثنى عليه المرءُ يوماً * كفاه من تعرضه الثناءُ[٣]

قال الله سبحانه حاكياً عن يونس – عليه السلام: ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٧] ثم قال سبحانه مخبراً عن نفسه: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٨] ويونس ﷺ لم يطلب صريحاً، ولكن لما أثنى على ربه واعترف بين يديه فقد أظهر الفاقة إليه فجعل الحق سبحانه ذلك طلباً.

---

(١) الملاءة: بمعنى الغنى، وفى الحديث: «من أحيل على مليءٍ فليَتبع».

(٢) الجبل المعروف بمكة.

(٣) البيتان من بحر الوافر، ووزنه: (مفاعلتن مفاعلتن فعولن) مرتين.

الفائدة السادسة:

وكان حقها أن تكون أُولَى: أن موسى ﷺ فعل المعروف مع ابنتى شعيب – عليه السلام – ولم يقصد منهما أجراً ولا طلب منهما جزاءً، بل لما سقى لهما أقبل على ربه وطلب منه ولم يطلب منهما، وإنما طلب من مولاه الذى مهما طلب منه أعطاه، والصوفى من يوفّى من نفسه ولا يستوفى لها، ولنا فى هذا المعنى شعر:

لا تشتغل بالعتب يوماً للورى * فيضيع وقتك والزمان قصيرُ

وعلامَ تعتبهم وأنت مصدِّقٌ * أن الأمور جرى بها المقدورُ

هم لم يوفُّوا للإله بحقه * أتريد أن توفيه وأنت حقيرُ؟

واشهد حقوقهم عليك وقم بها * واستوف منك لهم وأنت صبورُ

وإذا فعلت فأنت أنت بعين من * هو بالخفايا عالمٌ وخبيرُ[1]

فموسى ﷺ وفَّى من نفسه ولم يستوف لها، فكان له عند الله الجزاء الأكمل، وعجل له الحق سبحانه فى الدنيا زائداً عما ادخره له فى الآخرة أن زوَّجه إحدى الابنتين، وجعله صِهْراً لنبيه شعيب – عليه السلام – وآنسه به حتى جاء إبَّانُ[2] رسالته، فلا تجعل معاملتك إلا مع الله سبحانه أيها العبد تكن من الرابحين[3] ويكرمك بما أكرم به العباد المتقين.

السابعة:

انظر إلى قوله سبحانه: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ**﴾ ففى ذلك دليل على أنه يجوز للمؤمن أن يؤثر الظلال على الضواحى، وبارد الماء على سخنه

---

(١) الأبيات من بحر الكامل.

(٢) أى: وقت إرساله بالرسالة إلى بنى إسرائيل.

(٣) فى المخطوطة (المربحين).

وأسهل الطريقين على أشقهما وأوعرهما[١]، ولا يخرجه ذلك عن مقام الزهد، ألا ترى أن الحق سبحانه أخبر عن موسى أنه ﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أى: قصده وجاء إليه.

فإن قلت: قد جاء عن بعضهم أنه دخل عليه فوُجِد قد انبسطت الشمس على قُلَّته التى يشرب منها، فقيل له فى ذلك، فقال: إنى لما وضعتها لم تكن شمسٌ، وإنى أستحى أن أمشى لحظ نفسى.

فاعلم – رحمك الله – أن هذا حال عبد يطلب الصدق من نفسه ويمنعها مُنَاها ليشغلها بذلك عن الغفلة عن مولاها، ولو اكتمل مقامه لرفع الماء من الشمس قاصداً بذلك قيامه بحق نفسه التى أمره الحق سبحانه أن يقوم بها لا استجلاباً لحظه، ولكن ليقوم بحق ربه فى نفسه.

وقد قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] ولذلك كان عند الفقهاء إذا نذر المشى إلى مكة حافياً أن ينتعل ولا يلزمه الحفاء؛ لأنه ليس للشرع فى متاعب العباد قصد خاص، ولم تأت الشرائع تمنع الملاذ للعباد، كيف وهى مخلوقة من أجلهم؟

قال الربيع بن زياد الحارثى لعلى – رضى الله عنه: اعْدُنِى[٢] على أخى عاصم قال: ما باله؟ قال: لبس العباءة يريد النسك، فقال على – رضى الله عنه: علىَّ به، فأتى به مؤتزراً بعباءته مترديا بأخرى[٣]، شعث الرأس واللحية، فعبس فى وجهه وقال: ويحك أما استحييت من أهلك؟ أما رحمت ولدك؟ أترى الله أباح لك الطيبات وهو يكره أن تنال منها شيئاً؟ بل أنت أهون على الله، أما سمعت قول الله فى كتابه: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو

---

(١) فى المخطوط بالإفراد، والأولى بالتثنية كالمثبت.

(٢) أى: انصرنى وأعنى وقونى على أخى، من قولهم: أعدى زيداً عليه؛ أى: نصره. انظر "القاموس المحيط".

(٣) يعنى: بإزار ورداء الإحرام.

الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:١٠-٢٢] أفترى الله أباح هذا لعباده ليبتذلوه ويحمدوا الله عليها؟

قال عاصم: فما بالك فى خشونة مأكلك وخشونة ملبسك؟ قال: ويحك، إن الله فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس.

فقد تبين لك من قول على – رضى الله عنه – أن الحق سبحانه لم يطالب العباد بعدم تناول الملذوذات، وإنما طالبهم سبحانه بالشكر عليها إذا تناولوها، فقال سبحانه: ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ [سبأ:١٥]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ**﴾ [البقرة:١٧٢]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون:٥١]، فلم يقل: لا تأكلوا، وإنما قال: كلوا واعملوا.

فإن قلت: الطيبات فى هاتين الآيتين المراد بها الحلال؛ إذ هو الطيب باعتبار نظر الشرع، فاعلم أنه يمكن أن يكون المراد بالطيبات الحلال؛ لأنه طيب باعتبار أنه لم يتعلق به إثم ولا مذمة ولا حُجْبَة، ويمكن أن يكون المراد بالطيبات الملذوذات من المطاعم، ويكون سر إباحتها والأمر بأكلها ليجد متناولها لذاذتها فتنشط همته للشكر، فيقوم بوجود الخدمة ويرعى حق الحرمة.

وقال الشيخ أبو الحسن: قال لى شيخى: يا بنى بَرِّد الماء؛ فإن العبد إذا شرب الماء البارد فقال: الحمد لله استجاب كل عضو فيه بالحمد لله، ثم قال: وأما الذى دخل عليه فوُجِد قد انبسطت الشمس على قُلَّته فقيل له: ألا ترفعها؟ فقال: حين وضعتها لم تكن الشمس، وإنى أستحيى أن أمشى لحظ نفسى فإنه صاحب حال لا يقتدى به.

انعطاف

قد مضى قولنا فى سر إحواج الحيوان وهذا الآدمى خصوصاً إلى وجود تغذية ممدودة، والآن فلنتحدث فى تكفيل الحق سبحانه لما أحوج الحيوان إلى مددٍ ممدٍّ له وتغذية يكون بها حفظ وجوده، وكان هذان الجنسان اللذان هما الإنس والجان خلقا ليأمرهما بعبادته وليطالبهما بعبادته وموافقته، فقال سبحانه: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾** [الذاريات:٥٦-٥٨] فبين سبحانه أنه إنما خلق هذين الجنسين لعبادته، أى ليأمرهم بها، كما تقول: اشتريتك أيها العبد لتخدمنى، أى لآمرك بالخدمة فتقوم بها، وقد يكون العبد مخالفاً مبايناً ولم يكن شراؤك إياه لذلك، وإنما كان ليقوم بمهماتك ولقضاء حاجاتك، وأهل الاعتزال يجعلون الآية على ظاهرها فيقولون: الحق خلقهم للطاعة والكفر والمعصية من قبل أنفسهم[1]، وقد أبطلنا هذا المذهب من قبل، وفى تبيين سر الخلق والإيجاد إعلام للعباد وتنبيه لماذا خلقوا كى لا يجهلوا مراد الله فيهم فيضلوا عن سبيل الهداية ويهملوا[2] وجود الرعاية، وقد جاء أن أربعة من الملائكة يتجاوبون فى كل يومٍ فيقول أحدهم: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، ويقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، ويقول الرابع: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا.

فبين الحق سبحانه أنه ما خلق العباد لأنفسهم، إنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، فإنك لا تشترى عبداً ليخدم نفسه، إنما تشتريه ليكون خادماً، فهذه الآية حجة على كل عبد اشتغل بحظ نفسه عن حق ربه، وبهواه عن طاعة مولاه.

---

(١) يعنى من خلق أنفسهم، كما هو معروف من مذهبهم الباطل الكاسد الفاسد.

(٢) فى المخطوط بتقديم الميم على الهاء، والصحيح المثبت.

ولذلك سمع إبراهيم بن أدهم[١] - وهو كان سبب توبته - لما خرج متصيداً هاتفاً يهتف به من قَرَبُوس[٢] سَرْج فرسه: يا إبراهيم ألهذا خلقتَ؟ أم بهذا أمرتَ؟ ثم سمع الثانية: يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت.

فالفقيه من فهم سر الإيجاد فعمل له، وهذا هو الفقه الحقيقى الذى من أُعْطِيَهُ فقد أعطى المنة العظمى، وفيه قال مالك - رضى الله عنه: ليس الفقه بكثرة الرواية وإنما الفقه نورٌ يضعه الله فى القلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه يقول: الفقيه من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه، فمن فقه عن الله سر الإيجاد وأنه ما أوجده إلا لطاعته وما خلقه إلا لخدمته كان هذا الفقه منه سبباً لزهده فى الدنيا وإقباله على الأخرى، وإهماله لحظوظ نفسه واشتغاله بحقوق سيده، مفكراً فى المعاد قائماً بالاستعداد، حتى قال بعضهم: لو قيل لى: "غداً تموت" لم أجد مستزاداً[٣]، وقال بعضهم وقد قالت له أمه: يابنى مالك لا تأكل الخبز؟ فقال: بين مضغ الخبز وأكل الفتيت قراءة خمسين آية.

فهؤلاء قوم أذهل عقولَهم عن هذه الدار ترقبُ هول المطلع وأهوال يوم القيامة وملاقاة جبار السماوات والأرض، فغيبهم ذلك عن الاستيقاظ لملاذ هذه الدار والميل إلى مسراتها حتى قال بعض العارفين: دخلت على بعض المشايخ بالمغرب فى دائرة، فقمت لأملأ ماءً للوضوء، فقام الشيخ ليملأ عنى، فأبيت فأبى إلا أن يملأ وأمسك طرف الحبل بيده، وفى الدار عند البئر شجرة زيتون قد خيمت على الدار، فقلت له: يا سيدى لِم لا تربط طرف هذا الحبل لهذه الشجرة؟ قال: أوَههنا شجرة؟ إن لى فى هذه الدار ستين عاماً لم أعرف أن فى هذه الدار شجرة.

---

(١) سبقت ترجمته - رضى الله عنه.

(٢) قَرَبُوس: بفتحتين فضم، ولا يخفف.

(٣) أى: زيادةً فى العمل الصالح والطاعة أعمله فوق ما كلفت نفسى.

فافتح – رحمك الله – سمعك لهذه الحكاية وأمثالها تعلم أن لله عباداً شغلهم به عن كل شيء فلم يشغلهم عنه شيء، أذهل عقولهم عظمته وأدهش نفوسهم هيبته فاستقر فى أسرارهم وده ومحبته – جعلنا الله منهم ولا أخرجنا عنهم، ومثل هذه الحكاية كان بالصعيد رجلٌ من الأولياء بمسجدٍ طلب منه أحد من يخدمه أن يأخذ جريدةً من إحدى نخلتين كانتا فى المسجد، فأذن له فقال: يا سيدى من أيتهما آخذ؟ من الصفراء أو من الحمراء؟ فقال: يا بنى إن لى بهذا المسجد أربعين عاماً لا أعرف الصفراء من الحمراء.

ويحكى أن بعضهم كان يعبر عليه أولاده فى داره فيقول: من هؤلاء؟ أولاد من هؤلاء؟ فيقال له: أولادك، فكان لا يعرفهم حتى يعرَّف بهم[١] لاشتغاله بالله.

وكان بعض المشايخ يقول فى أولاده إذا رآهم: هؤلاء الأيتام وإن كان أبوهم حياً، والاسترسال فى هذه اللامعة يخرجنا عن غرض الكتاب.

(١) بمعنى أنه يحصل له ذهولٌ عنه وقت الصفاء مع الله فينساهم لا أنه لا يعرفهم أصلاً.

انعطافٌ

لما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] علم سبحانه أن لهم بشريَّات يطالبهم بمقتضاها تشوِّش عليهم صدق التوجه إلى العبودية، فضمن لهم الرزق كى يتفرغوا إلى خدمته ولا يشتغلوا بطلبه عن عبادته فقال: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات:٥٧] أى: ما أريد منهم أن يرزقوا أنفسهم فقد كفيتهم ذلك بحسن كفايتى وبوجود ضمانى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] لأنى أنا القوى الصمد الذى لا يُطْعَم، لذلك عقبه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] أى: ما أريد منهم أن يرزقوا أنفسهم لأنى أنا الرزاق لهم، وما أريد أن يطعمون لأنى أنا ذو القوة، ومن له القوة فى ذاته غنى عن أن يَطْعَم أو يُطْعَم[1]، فتضمنت الآية الضمان للعباد بوجود أرزاقهم لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ ولزم المؤمنين أن يوحدوه فى رزقه ولا يضيفوا منه شيئاً إلى خلقه، وأن لا يضيفوا ذلك إلى أسبابهم، وأن لا يسندوه إلى اكتسابهم، وقد قال الراوى: أصبح رسول الله ﷺ إثر سماء كانت من الليل فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قلنا: لا يا رسول الله، قال: «**قال ربكم: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله وبرحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا أو بنجم كذا فذاك كافر بى ومؤمن بالكواكب**»، ففى هذا الحديث فائدة عظمى للمؤمنين وبصيرة كبرى للموقنين، ولتعلم الأدب مع رب العالمين، ولعل هذا الحديث يكون أيها المؤمن ناهياً لك عن التعرض إلى علم الكواكب واقتراناتها وناهياً لك أن تدعى وجود تأثيراتها.

واعلم أن لله فيك قضاءً لابد أن ينفذه، وحكماً لابد أن يظهره، فما فائدة التجسس على غيب علام الغيوب؟ وقد نهانا سبحانه أن نتجسس على عباده فقال:

---

(١) أى: يطعم بنفسه أو يطعمه غيره.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢] فكيف لنا أن نتجسس على غيبه؟ ولقد أحسن من قال:

خَبَّر عنى النجم أنى * كافر بالذى قضته الكواكبْ

عالم أن ما يكون وما * كان قضاءٌ من المهيمن واجبْ

فائدةٌ:

اعلم أن مجىء هذه الصيغة على بناء فَعَّال تقتضى المبالغة فيما سيقت له، فرزاق أبلغ من رازق لأن فعَّالاً فى باب المبالغة أبلغ من فاعل، فيمكن أن تكون هذه المبالغة لتعدد أعيان المرزوقين، ويمكن أن تكون لتعداد أعيان الرزق، ويمكن أن يكون المراد هما جميعاً.

فائدةٌ:

نرجع إلى علم البيان، اعلم أن الدلالة على المعنى المقصود به وجود الثناء بالصفة[١] أبلغ من الدلالة عليه بالفعل، فقولك: "زيد محسن" أبلغ من قولك: "زيد يحسن"، أو: "قد أحسن"؛ وذلك لأن الصفة تدل على الثبوت والاستقرار، والأفعال أصل وضعها التجدد والانقراض؛ ولذلك كان قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨] أبلغ من قوله: إن الله هو يرزق، ولو قال: "إن الله هو يرزق" لم يفد إلا إثبات الرزق له، ولم يفد حصر ذلك فيه، فلما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أفاد ذلك انحصار الرزق فيه، فكأنه لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ قد قال: لا رزاق إلا الله.

الآية الثانية فى أمر الرزق:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم:٤٠] فتضمنت الآية أن الخلق والرزق مقترنان، أى: كما سلمتم لله بأنه الخالق من غير دعوى منكم للخالقية معه كذلك سلموا له أنه الرزاق ولا تَدَّعوا ذلك معه، أى: كما

---

(١) فى المخطوط (على الصفة) والمثبت الصحيح مراعاةً للمعنى.

انفرد فيكم بالخلق والإيجاد كذلك هو المنفرد بالرزق والإمداد، فقرنهما للاحتجاج على العباد ونهياً لهم أن يشهدوا رزقه من غيره وإحسانه من خلقه، وأنه سبحانه كما خلق من حيث لا وسائط له ولا أسباب كذلك هو الرزاق من غير أن يتوقف رزقه على واسطةٍ أو وجود سببٍ.

الفائدة الثانية:

أنه أفاد سبحانه بقوله: ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ**﴾ أن الرزق قد أمضى شأنه وأبرم أمره، وليس للقضاء فيه أمر يتجدد فى الأحيان ولا يتعاقب بتعاقب الزمان، وإنما يتجدد ظهوره لا ثبوته.

والرزق يطلق على قسمين:

ما سبق فى الأزل قضاؤه، وعلى ما ظهر بعد وجود العبد إبداؤه، والآية تحتمل الوجهين، فإن كان المراد ما سبقت به الأقدار فـ"ثُمَّ" لترتيب الأخبار، وإن كان المراد رزق الإظهار فهى تنبيه للاعتبار، وسر الآية التى سيقت من أجله[1] إثبات الإلهية لله سبحانه كأنه يقول: يا من يعبد غير الله ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ فهل تجدون هذه الأوصاف لغيره؟ أم يمكن أن يكون لأحدٍ من خلقه؟ فمن انفرد بها ينبغى أن يُعْتَرف بإلهيته ويُوَحَّد فى ربوبيته، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿**هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الروم: ٤٠].

الآية الثالثة فى أمر الرزق:

قوله سبحانه: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ [طه: ١٣٢].

---

(١) أى: من أجل الرزق.

وفى هذه الآية فوائد:

الأولى:

يجب أن تعلم أن النبى ﷺ وإن كان هو المخاطَب بهذه الآية فحكمها ووعدها متعلق بأمته أيضاً، فكل عبد مقول له: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ وإذ قد فهمت هذا فاعلم أن الله أمرك أيها العبد أن تأمر أهلك بالصلاة؛ لأنك كما يجب عليك أن تصل أرحامهم بأسباب الدنيا والإيثار بها كذلك يجب عليك أن تصلهم بأن تندبهم[1] إلى طاعة الله وتجنبهم وجود معصيته، وكما كان أهلك أولى ببِرِّك الدنيوى كذلك هم أولى ببِرِّك الأخروى، ولأنهم رعيتك، وقد قال ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته**»، وقال الله سبحانه فى الآية الأخرى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء:٢١٤] كما قال ههنا: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ**﴾ [طه:١٣٢].

الفائدة الثانية:

انظر إلى قوله سبحانه، أمره فى الآية أن يأمر أهله قبل أن يأمره هو فى نفسه بالاصطبار عليها ليعلمك أن الآية سيقت للأمر بأمر الأهل بالصلاة، وأن غير هذا إنما جاء بطريق التبع، وإن كان مقصوداً فى نفسه، لكنه لما علم العبد أنه مأمور فى نفسه بالصلاة لا شك فيه، فأراد الحق سبحانه أن ينبه العباد على ما لعلهم أن يهملوه، فأمر رسوله بذلك ليسمعوا فيتبعوا فيكونوا لذلك مسارعين وعلى القيام به مثابرين.

---

(١) أى: تدعوهم.

تنبيهٌ:

اعلم أنه يجب عليك أن تأمر أهلك بالصلاة من زوجةٍ أو أمــةٍ أو ابنــةٍ أو غير ذلك، ولك أن تضربهم على تركها[١]، وليس لك عند الله حجة أن تقول: أمرت فلم يسمعوا، فلو علموا أنه يشق عليك ترك الصلاة كما يشق عليك إذا أفسدوا طعاماً أو تركوا من مهماتك أمراً ما تركوا، بل اعتادوا منك أنك تطالبهم بحظوظ نفســك، ولا تطالبهم بحقوق سيدك؛ فلأجل ذلك أهملوها، ومن كان محافظاً علـــى الصـــلاة وعنده أهل لا يصلون وهو غير آمرٍ لهم بها حُشِرَ يوم القيامة فى زمرة المضيِّعين للصلاة، فإن قلت: إنى أمرتهم فلم يفعلوا، ونصحتهم فلم يقبلوا، وعاقبت على ذلــك بالضرب فلم يكونوا فاعلين لها، فكيف أصنع؟ فالجواب أنه ينبغى لك مفارقـــة مـــا يمكن مفارقته ببيعٍ[٢] أو طلاقٍ، والإعراض عما لا يمكن بيونته عنك بذلك[٣]، وأن تهجرهم فى الله، فإن الهجر فى الله يوجب الصلة به.

الفائدة الثالثة:

قوله سبحانه: ﴿**وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ فيه إشارة أن فى الصلاة تكليفـــاً للنفـــوس شاقاً عليها؛ لأنها تأتى فى أوقات ملاذ العباد وأشغالهم فتطالبهم بالخروج عن ذلــك كله إلى القيام بين يدى الله، والفراغ مما سوى الله، ألا ترى أن صلاة الغداة تأتيهم فى وقت منامهم فى وقت ألذ ما يكون المنام فيه؟ فطلب الحق منهم ترك حظوظهم لحقوقه، ومرادهم لمراده، ولذلك كان فى نداء الصبح خاصة: "الصلاة خيـــر مـــن النوم"، وأما صلاة الظهر فإنها تأتيهم فى وقت قيلولتهم ورجوعهم من تعب أسبابهم، وأما صلاة العصر فإنها تأتيهم وهم فى متاجرهم وصـــنائعهم منهمكـــون، وعلـــى

---

(١) يعنى: ضرباً خفيفاً غير مبرِّح لا يخدش وجهاً ولا يكسر ضلعاً للتذكير والتنفير عـــن تـــرك الصلاة.

(٢) أى: بيع العبد أو الأمة إن كانا لا يصليان.

(٣) أى: تعرض عمن لا تستطيع مفارقته ببيعه أو بطلاقه، كالجار وصديق العمل وغيـــر ذلـــك بحيث يعرف أن إعراضك عنه لأجل تركه للصلاة.

أسباب دنياهم مقبلون، وأما صلاة المغرب فإنها تأتى فى وقت تناولهم لأغذيتهم وما يقيمون به وجود بنيتهم، وأما صلاة العشاء فإنها تأتى وقد كَرَّت[١] عليهم متاعب الأسباب التى كانوا فيها فى بياض نهارهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿**وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ وقال: ﴿**حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ**﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقال: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾ [النساء:١٠٣]، وقال: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [النور:٥٦] ومما يدلك على أن فى القيام بالصلاة تكاليف العبودية، وأن القيام بها على خلاف ما تقتضيه البشرية قول الله سبحانه: ﴿**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٥]، فجعل الصبر والصلاة مقترنين إشارةً إلى أن يحتاج فى الصلاة إلى الصبر، صبرٌ على ملازمة أوقاتها، وصبرٌ على القيام بمسنوناتها وواجباتها، وصبرٌ يمنع القلوب فيها من غفلاتها، ولذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾، فأفرد الصلاة بالذكر ولم يفرد الصبر به لو كان كذلك لقال: وإنه لكبير، فذلك يدل على ما قلناه، أو لأن الصبر والصلاة مقترنان متلازمان فى الآية الأخرى: ﴿**وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ**﴾ [التوبة:٦٢][٢] وقال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا**﴾ [التوبة:٣٤] ، وقال: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا**﴾ [الجمعة:١١]، فافهم. والصلاة شأنها عظيم وأمرها عند الله جسيم، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال رسول الله ﷺ لما سئل: أى الأفعال أفضل؟ فقال: «**الصلاة لمواقيتها**»، وقال ﷺ: «**المصلى يناجى ربه**»، وقال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه فى السجود**».

(١) أى: أتت عليهم وعاد تعبها عليهم.

(٢) فإن الله سبحانه ورسوله ﷺ متلازمان من حيث وجوب إرضائهما، وإرضاء رسوله ﷺ هو عين إرضاء الله تعالى.

ورأينا أن الصلاة اجتمعت فيها من العبوديات ما لم يجمع فى غيرها، منها: الطهارة، والصمت، واستقبال القبلة، والاستفتاح بالتكبير، والقراءة، والقيام والركوع والسجود، والتسبيح فى الركوع والسجود، والدعاء فى السجود، إلى غير ذلك، فهى مجموع عباداتٍ عديدة؛ لأن الذكر بمجرده عبادة، والقراءة بمجردها عبادة، والتسبيح والدعاء عبادة، والركوع والسجود والقيام كلٌ بمجرده عبادة، ولولا خشية الإطالة لبسطنا الكلام فى أسرارها وشوارق أنوارها، وهذه اللامعة ههنا كافية والحمد لله.

الفائدة الرابعة:

قوله سبحانه: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ أى: لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، وكيف نأمرك بذلك ونكلفك أن ترزق نفسك وأنت لا تستطيع ذلك؟ وكيف يجمل بنا أن نأمرك بالخدمة ولا نقوم لك بالقسمة؟ فكأنه سبحانه لما علم أن العباد ربما شوَّش عليهم طلب الرزق فى دوام الطاعة، وحجزهم ذلك عن التفرغ للموافقة، فخاطب رسوله ليسمعوا فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ أى: قُمْ[1] بخدمتنا ونحن نقوم لك بقسمتنا، وهما شيئان: شىء ضمنه الله لك فلا تنهمه[2]، وشىء طلبه منك فلا تهمله، من اشتغل بما ضمن له عما طلب منه فقد عظم جهله واتسعت غفلته، وقلما يتنبه لمن يوقظه، بل حقيقٌ على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له، إذا كان سبحانه قد رزق أهل الجحود، فكيف لا يرزق أهل الشهود؟ إذا كان قد أجرى رزقه على أهل الكفران كيف لا يجرى رزقه على أهل الإيمان؟

---

(١) فى المخطوط (أقم) والصحيح المثبت.

(٢) أى: تسارع إليه وتتشوق إليه، من (النهمة) وهى التعلق الشديد، وفى نسخةٍ مطبوعةٍ (تتبعه).

فقد علمت أيها العبد أن الدنيا مضمونة لك؛ أى: مضمون لك منها ما يقوم بأودك[1]، والآخرة مطلوبة منك؛ أى: العمل لها لقوله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧]، فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك، حتى قال بعضهم: إن الله ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة فليته ضمن لنا الآخرة، وطلب منا الدنيا.

وفى قوله سبحانه: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإتيانه به على هذه الصيغة ليدل ذلك على الدوام والاستقرار؛ لأن قولك: "أنا أكرمك" "ليس قولك": "أنا أكرمتك"؛ لأن قوله: "أنا أكرمك" يدل على إكرامٍ بعد إكرامٍ، وقولك: أنا أكرمتك لا يدل إلا على أن ثَمَّ إكراماً كان يدل وقوعه من غير أن يدل على التكرار والدوام، فقوله سبحانه: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أى رزقاً بعد رزق، لا نعطل عنك منتنا ولا نقطع عنك نعمتنا، كما تفضلنا على العباد بالإيجاد فلذلك أيضاً قمنا لهم بدوام الإمداد، ثم قال سبحانه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ كأنه سبحانه يقول: نحن نعلم إذا تبتَّلت[2] لخدمتنا وتوجهت لطاعتنا معرضاً عن أسباب الدنيا تاركاً للدخول فيها والاشتغال بها لا يكون رزقك فيها رزق المترفين ولا عيشك عيش المتوسعين، ولكن اصبر على ذلك، فإن العاقبة للمتقين، كما قال سبحانه فى الآية الآخرى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١].

فإن قلت: لماذا خص التقوى بالعاقبة وأهل التقوى لهم مع العاقبة العيشة الطيبة فى الدنيا لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]؟ فاعلم أنه سبحانه يخاطب العباد على حسب عقولهم، فكأنه يقول: أيها العباد، إن نظرتم لأهل الغفلة أن لأهل الغفلة والعدوى[3]

---

(١) أى: بدنك وبنْيتك.

(٢) التبتل: التعبد والتفرغ.

(٣) أى: الاعتداء واقتراف المعاصى، قال تعالى: (وكانوا يعتدون) الآية.

بداية، فلأهل الإيمان والتقوى نهاية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، فخاطب العباد على حسب ما تصل إليه عقولهم، وتدركه أفهامهم، كما جاء (الله أكبر) وإن كان غيره لم يشاركه فى الكبرياء[1]، لكن لما كانت النفوس قد تشهد كبرياء الآثار كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] فكأنه يقال لها: إن كان ولابد وشهدت لشيء كبرياء فالله أكبر منه وأكبر من كل كبير، كما جاء: "الصلاة خير من النوم" فلو قيل: فليس فى النوم خير، قالت النفوس: قد أدركتُ لذاذته وراحته، فسلم لها ما أدركتْ، ثم قيل لها: ما دعوناك إليه خير مما هو خير عندك، الصلاة خير من النوم، لأن ما ملت إليه من المنام عَرَضٌ يفنى وما دعوناك إليه معاملة يبقى جزاؤها ما يفنى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى:٣٦].

فائدة جليلة:

اعلم أن الآية علَّمت أهل الفهم عن الله كيف يطلبون رزقه، فإذا توقفت عليهم أسباب المعيشة أكثروا من الخدمة والموافقة؛ لأن هذه الآية دلتهم على ذلك، ألا ترى أنه قال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ فجاء الوعد بالرزق بعد أمرين: أحدهما: أمر الأهل بالصلاة، والآخر: الاصطبار عليها، ثم بعد ذلك قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ففهم أهل المعرفة بالله أنه إذا توقفت أسباب المعيشة قرعوا باب الرزق بمعاملة الرزاق لا كأهل الغفلة والعمى؛ لأن أهل الغفلة والعمى إذا توقفت عليهم أسباب الدنيا ازدادوا كدحاً عليها وتهافتاً فيها بقلوبٍ غافلةٍ وعقولٍ عن الله ذاهلة، وكيف لا يكون أهل الفهم عن الله ليس كذلك وقد سمعوا الله يقول: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]؟ فعلموا أن باب الرزق طاعة الرزاق، فكيف يطلب منه بمعصيته؟ أم كيف يستمطر فضله

---

(١) وهذا يسمى فى البلاغة تفضيلاً على غير بابه، فليس المقصود أن هناك أكبر وكبيراً وأن أحدهما فاق الآخر، بل غير الله تعالى ليس شيئاً بالنسبة له تعالى.

بمخالفته؟ وقد قال عليه السلام: «**إنه لا ينال ما عند الله بالسخط**»؛ أى: لا يطلب رزقه إلا بالموافقة له، وقد قال سبحانه مبيناً لذلك: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** [الطلاق:٢،٣]، وقال سبحانه: **﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾** [الجن:١٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن التقوى مفتاح الرزقين: رزق الدنيا، ورزق الآخرة، كما قال سبحانه: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾** [المائدة:٦٥،٦٦] فبين لك سبحانه لو أقاموا التوارة والإنجيل؛ أى: عملوا بما فيها لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ أى: لوَسَّعْنَا عليهم أرزاقنا، وأدمنا عليهم إنفاقنا، لكنهم لم يفعلوا ما نحب، فلأجل ذلك لم نفعل ما يحبون.

الآية الرابعة فى أمر الرزق:

قوله سبحانه: **﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [هود:٦] فهذه الآية صرحت بضمان[1] الحق للرزق، وقطعت ورود الهواجس والخواطر عن قلوب المؤمنين، فإن وردت على قلوبهم أسباب الدنيا كَرَّت عليها جيوش الإيمان بالله والثقة به فهزمتها، **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** [الأنبياء:١٨]، فقوله سبحانه: **﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾** ضمان تكفل به لعباده تعريفاً بوداده، ولم يكن ذلك واجباً عليه، بل أوجبه على نفسه إيجاب كرمٍ وتفضلٍ، ثم إنه عمم الضمان فكأنه يقول: أيها العبد، ليست كفالتى ورزقى خاصاً بك، بل كل دابة فى الأرض فإنى كافلها ورازقها وموصل إليها قوتها، فاعلم بذلك سعة كفالتى وغناء ربوبيتى، وأن شيئاً لا يخرج عن إحاطتى، وثق بى كفيلاً واتخذنى وكيلاً، فإذا رأيت ذكرى لأصناف الحيوان ورعايتى لهم وقيامى بحسن الكفالة لها وأنت

---

(١) الباء الموحدة ساقطة من الأصل.

أشرف هذا النوع فأنت أولى بأن تكون بكفالتي واثقاً ولفضلي رامقاً، ألا ترى كيف قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]؟ أي: على سائر أجناس الحيوان؛ أي: إذ دعوناهم إلى خدمتنا ووعدناهم دخول جنتنا وخطبناهم إلى حضرتنا، ومما يوضح لك كرامة الآدمي على غيره من المكونات، وأن المكونات مخلوقات من أجله، وهو مخلوق من أجل حضرة الله، سمعت شيخنا أبا العباس يقول: يقول الله عز وجل: يا ابن آدم خَلَقتُ الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له، قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

وسمعت الشيخ يقول: الأكوان كلها عبيد سُخْرة وأنت عبد الحضرة، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق:١٢]، فقد بين لك أن السموات والأرض مخلوقة من أجل الآدمي، فإذا علمت أن الأكوان مخلوقة من أجلك، إما انتفاعاً وإما اعتباراً وهو نفعٌ أيضاً، فينبغي لك أن تعلم أن الله إذا رزق من هو مخلوق من أجلك كيف لا يكون لك رازقاً؟ ألم تسمع قوله سبحانه: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:٣١،٣٢]؟ وقوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦] تأكيد لأنه المتكفل بها؛ أي: لا يخفى عليه مكانها ولا ينبهم عليه شأنها، بل يعلم مكانها فيوصل إليها ما قسم لها.

الآية الخامسة فى شأن الرزق:

قوله سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٢،٢٣]، وهذه الآية هي التي غسلت الشكوك من قلوب المؤمنين وأشرقت في قلوبهم أنوار اليقين، فأوردت على قلوبهم الزوائد لما تضمنته من الفوائد، وذلك أنها تضمنت ذكر الرزق ومحله والقَسَم عليه والتشبيه له بأمرٍ لا خفاء به.

ولنتبع ذكر هذه الفوائد فائدةً فائدةً:

الأولى:

اعلم أنه سبحانه لما علم كثرة اضطراب النفوس فى شأن الرزق كرر ذكره لما تكررت ورود عوارضه على القلوب، كما تُكَرَّر الحجة إذا علمت أن الشبهة مستمكنة فى نفس خصمك، كما كرر سبحانه الاستدلال على المعاد فى آياتٍ عديدةٍ لما اضطربت فيه الملحدون، واستبعدوا أن يعود الإنسان بعد أن تمزقت أوصاله واضمحل بناؤه[1] وصار تراباً أو أكلته السباع والهوام، فاحتج عليهم فى كتابه العزيز حججاً كثيرة منها: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [يس:٧٨، ٧٩] ويقول فى الآية الأخرى: ﴿**وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم:٢٧]، ويقول: ﴿**إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى**﴾ [فصلت:٣٩] إلى غير ذلك، لما علم الحق سبحانه شدة اضطراب النفوس فى أمر الرزق أكد الحجة فى ذلك فى آيات عديدة، منها ما تقدم ذكره ومنها ما لم نذكره، فلما علم الحق سبحانه ذلك من نفوس العباد قال تارةً: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ**﴾ [الذاريات:٥٨]، وقال فى أخرى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ**﴾ [الروم:٤٠]، وقال فى أخرى: ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُكَ**﴾ [طه:١٣٢]، وقال فى أخرى: ﴿**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ**﴾ [الملك:٢١]، وقال ههنا: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ**﴾ [الذاريات:٢٢]، ليس محل[2] الرزق فتسكن إليه القلوب، وليس الضمان مع إبهام المحل كالضمان مع تبيينه، فكأنه سبحانه يقول: لم يكن يجب علينا أن نبين لكم محل رزقكم، لكم عندنا رزقٌ نوصله لكم إذا جاء إبَّانه[3] وليس علينا بيانه، ولكن بلطفه ورحمته وفضله ومننه بين محل الرزق ليكون ذلك أبلغ فى ثقة النفس به وأقوى فى دفع الشك فيه.

---

(١) فى المخطوط (ثناؤه) والمثبت الصحيح كما فى نسخةٍ مطبوعةٍ.

(٢) هكذا بالأصل، ولعل فيه سقطاً تقديره (ليس هنا محل الرزق).

(٣) أى: وقته.

وفيه فائدة أخرى:

وهو أنه يضمن بتبيين المحل رفع همم الخلق عن الخلق، وأن لا يطلبوه إلا من الملك الحق، وذلك إذا وقع بقلبك طمعٌ فى مخلوق أو حوالةٌ[١] على سبب قال لك سبحانه: **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾**؛ أى: يا هذا المتطلع للرزق من المخلوق الضعيف العاجز فى الأرض ليس رزقك عنده، إنما رزقك عندى وأنا الملك القادر لأجل هذا أنه لما سمع بعض الأعراب هذه الآية نحر ناقته فارًّا إلى الله وهو يقول: سبحان الله، رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض؟!

فانظر - رحمك الله - كيف فهم عن الله أن مراده بهذه الآية أن يرفع همم عباده إليه، وأن تكون رغبتهم فيما لديه، كما قال فى الآية الأخرى: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾** [الحجر:٢١] لتجاش[٢] الهمم إلى بابه، ولتجنح القلوب إلى جنابه، فكن - رحمك الله - سماوياً علوياً، ولا تكن سفليا أرضياً، لذلك قال بعضهم:

إذا أعطشتك أكف اللئام * كفتك القناعة شِبعاً ورَيَّا[٣]

فكن رجلاً جسمه فى الثرى * وهامة همته فى الثريا

فإن إراقة ماء الحياة * دون إراقة ماء المُحيَّا[٤]

وسمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه - يقول: والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمة عن الخلق، واذكر أيها الأخ - رحمك الله - ههنا قوله: **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [المنافقون:٨] فمن العز الذى أعز الله به المؤمن رفع همته إلى مولاه وثقته به دون ما سواه، واستحِ من الله أن يكون بعد أن كساك حلة

---

(١) أى: تحولٌ إلى سببٍ واعتمادٌ عليه.

(٢) أى: تتشجع وتتقدم وتلج بابه، من (الجأش) بمعنى القوة والشجاعة.

(٣) رَيًّا: بفتح الراء وكسرها، ولكن الفتح أفضل ليوافق السجع.

(٤) المُحَيًّا: الوجه، كناية عن التذلل وتصبب العرق لأجل طلب المال وغيره من الآخرين.

الإيمان، وزينك بزينة العرفان أن تستولى عليك الغفلة والنسيان حتى تميل إلى الأكوان، أو تطلب من غيره وجود إحسان، ولذلك قال بعضهم:

أبَعْد نفوذى فى علوم الحقائق * وبعد انبساطى فى مواهب خالقى

وفى حين إشراقى على ملكوته * أُرَى باسطا كفاً إلى غير رازقى

وإن كلفتك النفس الغافلة عن مولاها بأن ترفع حاجتك إلى المخلوقين فارفعها إلى من يرفع إليه ذلك المخلوق حاجته، وهَيِّنٌ على النفس أن تهين إيمانك ليحصل هواها، وإن تذللت أبلغ[1] لتبلغ مناها، كما قال بعضهم:

تكلفنى إذلال نفسى لعزها * وهان عليها أن أهان لتكرما

تقول سل المعروف يحيى بن أكثم * فقلت سليه رَبَّ يحيى بن أكثما

وقبيح بالمؤمن أن ينزل حاجته بغير الله تعالى مع علمه بوحدانيته وانفراده بربوبيته، وهو يسمع قول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]، وذلك من كل أحد قبيح، ومن المؤمنين أقبح، ولتذكر قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، ومن العقود التى عاقدته عليها أن لا ترفع حوائجك إلا إليه ولا تتوكل إلا عليه، وذلك لازم إقرارك له بالربوبية يوم المقادير، يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢] فكيف تعرفه وتوحده هناك وتجهله ههنا وقد تواتر عليك إحسانه وغمرك فضله وامتنانه؟ كما قال بعضهم:

فى القلب لكم منزلة عليا * لا يسكنها سعدى ولا لُبْنَاء[2]

فى الذَّرِّ عرفتكم فهل يجمل بى * أنْ أنكركم ولحيتى شمطاء

---

(١) أى: وإن تذللت كان ذلك أبلغ منها فى تحصيل مرادها، وهذا سيئ بغيض.

(٢) لبناء: ممدود (لُبْنَى).

ورفع الهمة عن الخلق هو ميزان الفقراء أو مِسْبَار[1] الرجال، وكما توزن الذوات كذلك توزن الأحوال والصفات **﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾** [الرحمن:٩] فيظهر الصادق بصِدْقه والمدعى بمَذَقه[2] **﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** [آل عمران:١٧٩] وقد ابتلى الله بحكمته ووجود مننه الفقراء الذين ليسوا بصادقين، بإظهار ما كمنوا من الرغبة وأَسَرُّوا من الشهوة فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم، ملائمين لهم، موافقين لهم على مآربهم مدفوعين على أبوابهم، فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس، معنيون بإصلاح ظواهرهم، غافلون عن إصلاح سرائرهم، ولقد وسمهم الحق سمة كشف بها عوراتهم وأظهر أخبارهم، فبعد أن كانت نسبته أن لو صدق مع الله أن يقال فيه: عبد الكبير، فأخرج عن هذه النسبة بعدم صدقه، فصار يقال: شيخ الأمير، أولئك الكاذبون على الله، الصادُّون العباد عن صحبة أولياء الله؛ لأن ما يشهده العموم منهم يسحبونه على كل منتسبٍ إلى الله صادقٍ وغير صادق، فهم حُجُبُ أهل التحقيق، وسُحُبُ شموس أهل التوفيق، ضربوا طبولهم، ونشروا أعلامهم، ولبسوا دروعهم، فإذا وقعت الحملة ولَّوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتهم منطلقة بالدعوى، وقلوبهم خالية من التقوى، ألم يسمعوا قوله سبحانه: **﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾** [الأحزاب:٨]؟ أترى إذا سأل الصادقين أيترك المدعين من غير سؤال؟ ألم يسمعوا قوله سبحانه: **﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [التوبة:١٠٥] فهم فى إظهار زى الصادقين، وعملهم عمل المعرضين، كما قال بعضهم:

أما الخيام فإنها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نسائها

لا والذى حجت قريشٌ بيته * مستقبلين الركن من بطحائها.

---

(١) أى: من سبر الرجل إذا عرف دواخله ونواياه ودفائنه.

(٢) يقال: مَذَق الودَّ؛ أى: لم يخلصه. "مختار الصحاح".

مـا أبصـرت عينـى ختـام قبيلـةٍ * إلا ظننـت أحبتـى بفنائهـا[١]

فقد تبين – رحمك الله – أن رفع الهمة عن الخلق هو زينة أهل الطريق وسمة أهل التحقيق، ولنا فى هذا المعنى:

بكرتَ تلـوم علـى زمـانٍ أجحفـا * فصدفتَ عنهـا علَّهـا أن تصـدفا

لا تكثـرى عتبـاً لـدهرك إنـه * ما إن يطالب بالوفـاء ولا الصَّـفا

مـا ضـرنى إن كنـت فيـه خـاملاً * فالبـدر بَـدْرٌ إن بـدا أوْ إن خفـا

الله يعلـم أننـى ذو همـةٍ * تـأبى الـدنايا عفـةً وتطرفـا

لِمَ لا أصون عـن الـورى ديبـاجتى * وأريهـم عـزَّ الملـوك وأشْـرَفا؟

أأريهـم أنـى الفقيـر إلـيهم * وجمـيعهم لا يسـتطيع تصـرفا؟

أم كيف أسـأل رزقـه مـن خلقـه؟ * هذا لعمرى إن فعلـت هـو الجفـا

شكوى الضعيف إلى ضـعيفٍ مثلـه * عجزٌ أقام بحامليْـه علـى شـفا[٢]

فاسْـتَرْزِقِ الله الـذى إحسـانه * عـمَّ البريـة منَّـةً وتلطفـا

والجـأ إليـه تجـده فيمـا ترتجـى * لا تَغْـدُ عـن أبوابـه متحرفـا[٣]

الفائدة الثانية:

يحتمل أن يكون قوله سبحانه: **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾** أى يكـون المـراد إثبات رزقكم، أى إثباته فى اللوح المحفوظ، فإن كان المراد ذلك فهو تطمين للعباد وإعلام لهم أن رزقكم كتبناه عندنا وأثبتناه فى كتابنا، وقضيناه بامتناننا مـن قبـل وجودكم، وعيناه من قبل ظهوركم، فلأى شيء تضـطربون؟ ومـا لكـم إلـىَّ لا

---

(١) الأبيات من بحر الكامل، ووزنه (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) مرتين.

(٢) أى: على حرْف الهلاك وطرفه.

(٣) الأبيات من بحر الكامل.

تسكنون؟ وبوعدى لا تثقون؟ ويحتمل أن يكون المراد ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ﴾ أى الذى منه رزقكم وهو الماء كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، ولذلك قال ابن عباس: هو المطر، فيكون قوله: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ﴾ أى الشىء الذى منه أصل رزقكم، ولأن الماء فى نفسه رزق.

الفائدة الثالثة:

يمكن أن يكون مراد الحق بهذه الآية تعجيز العباد عن دعوى القدرة على الأسباب؛ لأن الله تعالى لو أمسك الماء عن الأرض لتعطل سبب كل ذى سببٍ من حارثٍ وزارع وتاجر وخائط وكاتب وغير ذلك، فكأنه يقول: ليست أسبابكم هى الرازقة لكم، ولكن أنا الرازق لكم وبيدى تيسير أسبابكم؛ لأنى أنا المنزل لكم ما به كانت أسبابكم وتمت أكسابكم.

الفائدة الرابعة:

فى اقتران الرزق بالأمر الموعود فائدة جليلة؛ وذلك أن المؤمنين علموا أن ما وعدهم الحق لابد من كونه، ولا قدرة لهم على تعجيله ولا تأجيله، ولا حيلة لهم فى جلبه، فكأنه سبحانه يقول: كما لا شك عندكم أن عندنا ما توعدون كذلك لا يكن عندكم شك فى أن عندنا ما ترزقون، وكما أنكم عن استعجال ما وعدنا قبل وقته عاجزون كذلك أنتم عاجزون عن أن تستعجلوا رزقاً أجّلته ربوبيتنا ووقّته إلهيتنا.

الفائدة الخامسة:

قوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فى ذلك حجة عظمى على العباد أن يكون الوفىُّ الوعد الذى لا يخلف الميعاد يقسم للعباد على ما ضمن لهم لعلمه بما النفوس منطوية عليه من الشك والاضطراب ووجود الارتياب؛ فلذلك قالت الملائكة حين سمعت هذه الآية: هلك بنو آدم، أغضبوا الجليل حتى أقسم، وقال بعضهم حين سمع هذه الآية: سبحان الله، من ألجأ الكريم إلى القَسَم؟ ومن علِمْتَ ثقته بك لم تَحْتَجْ معه إلى قَسَم، وإذا علمت اضطرابه

فى وعدك أقسمت له، فهذه الآية سرَّت أقواما وأخجلت آخرين، أما الذين[١] سرتهم: فهم الذين فى المقام الأول؛ إذ يزيد بها إيمانهم ورسخ إيقانهم، فانتصروا بها على وساوس الشيطان وشكوك النفس، وأما الذين أخجلهم ذلك، فإنهم علموا أن الحق علم منهم عدم الثقة ووجود الاضطراب، وأقامهم مقام أهل الشك، فأقسم لهم، فأخجلهم ذلك حياءً منه، وذلك مما أفادهم الفهم عنه، ورُبَّ شيء أوجب سرور أقوام وحزن آخرين على حسب تفاضل الأفهام وواردات الإلهام، ألم تر أنه لما أنزل قوله سبحانه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣] فرح بعض الصحابة أجمع وحزن لها أبو بكر – رضى الله عنه – لأنه فهم منها نعى رسول الله ﷺ فبكى، وأخذ من ذلك أن الشيء إذا استتم خِيفَ عليه من التراجع إلى وجود النقصان، كما قيل:

إذا تم شيء دنا نقصه * تَوَقَّ زوالاً إذا قيل تَم[٢]

واعلم أن الأمر لا يتقاصر ما دام الرسول ﷺ حياً، وفرح الصحابة لظاهر البشارة التى فيها ولم ينفذوا إلى ما نفذ إليه أبو بكر – رضى الله عنه – فظهر بذلك سر قوله ﷺ: «**ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر فى صدره**» فبذلك الشيء الذى وقر فى صدره كان سابقاً، وهو بعينه الذى أوجب أن يفهم ما لم يفهمه غيره قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ [التوبة:١١١] فسمعت الشيخ أبا محمد المرجانى – رضى الله عنه – يقول: قوم سمعوا هذه الآية فاستبشروا بهذه المبايعة فابيضت وجوههم سروراً بها إذ أهَّلَهم الحقُّ أن يشترى منهم، وإذ أجلَّ أقدارهم إذ رضيهم للشراء، وسروراً بالثمن الجليل وهو الثواب الجزيل، وقوم اصفرت وجوههم خجلاً من الله إذ اشترى منهم ما هو مالكه، فلولا أنه علم منهم وجود

---

(١) فى المخطوط (الذى) بالإفراد.

(٢) البيت من بحر المتقارب، ووزنه: (فعولن فعولن فعولن فعل) مرتين.

الدعوى الكامنة فى أنفسهم ودعوى المالكية منهم لها ما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكان للذين ابيضت وجوههم جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وكان للذين اصفرت وجوههم خجلاً جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما. انتهى كلام الشيخ.

فلو سلم المؤمنون من بقايا المنازعة ما أوقع عليهم مبايعة، لذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: من الأنبياء والمرسلين؛ لذلك قال الشيخ أبو الحسن:

النفوس ثلاثة أقسام:

نفسٌ لا تُشْترى لخستها، ونفس تُشْترى لكرامتها، ونفسٌ لا يقع عليها الشراء لثبوت حريتها.

فالأول: نفوس الكافرين، لا يقع عليها الشراء لخستها.

والثانى: نفوس المؤمنين، وقع عليها الشراء لكرامتها.

والثالث: نفوس الأنبياء والمرسلين، لم يقع عليها الشراء لثبوت حريتها.

الفائدة السادسة:

وهو أن سبحانه أقسم بالربوبية الكافلة للسماء والأرض لا ينبغى أن يُشَك فى الثقة بها ومن[1] شأنها كفالة هذا العالم العظيم الذى أنت منه، وإذا نسبت إليه كنت كلا شىء موجود، فذاك أبلغ فى وجود الثقة من أن يقول: فوالسميع أو العليم أو الرحمن أو غير ذلك من الأقسام، فافهم.

الفائدة السابعة:

قوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ والحق هو ضد الباطل، والباطل هو المعدوم الذى لا ثبوت[2] له، والرزق حق كما أن الرازق حق، والشك فى الرزق شك فى الرازق، حتى كان بعضهم ينبش المقابر ثم تاب، فقال لبعض

---

(١) فى المخطوط (ما) والمثبت أولى بالمعنى.

(٢) فى المخطوط (ثبت) والصحيح المثبت.

العارفين: نبشت ألف قبرٍ فوجدت كلهم محولةً وجوههم عن القبلة، فقال عارف ذلك الزمان: إنما حوّل وجوههم عن القبلة تهمة الرزق.

الفائدة الثامنة:

قوله سبحانه: ﴿**مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ تأكيد فى إثبات الرزق وتقرير لحقيقته، وأنه لا ينبغى أن يرتاب فيه مؤمن ولا يشك فيه موقن، وأن ثبوته بمشهد بصائر القلوب كثبوت المنطق[1] الظاهر بمشهد الأبصار، فنقل المعنى إلى الصورة، ومثَّل الغيب بالشهادة، وقطع شك العباد فى أمر الرزق، أى: فكأنما أنكم تنطقون لا تشكون فى ذلك لِمَا أثبته العيان كذلك لا ترتابوا فى أمر الرزق، فقد أثبته نور الإيمان، فانظر – رحمك الله – اعتناء الحق سبحانه بأمر الرزق وتكراره له وتبيين موطنه وتبصيره وتمثيله بالأمور المحسوسة التى لا يرتاب فيها شاهدها، وإقسامه على ذلك بالربوبية المحيطة بالسماء والأرض، وكذلك تكرر فى كلام صاحب الشرع صلوات الله عليه فقال: «**إن روح القدس نفث فى رُوعِى[2] أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب**» وقال ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» وقال عليه السلام: «**طالب العلم تكفل الله برزقه**» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى ذلك.

فائدة:

اعلم أن لا ينافى التوكل على الله فى أمر الرزق وجود السبب كما قد أشار إليه رسول الله ﷺ لأنه قال: «**فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب**»، فقد أباح الطلب ولو كان منافياً لمقام التوكل على الله لما أباحه لأنه لم يقل: لا تطلبوا، إنما قال: «**أجملوا فى الطلب**»، فكأنه قال: إذا طلبتم فاطلبوا مجملين، أى كونوا مع الله فى الطلب

---

(١) يعنى: الناطق أو الصامت من الإنسان أو الحيوان. انظر "مختار الصحاح".

(٢) الرُّوع: القلب والعقل. "مختار الصحاح".

متأدبين وإليه مفوضين، فقد أباح وجود الطلب، والطلب من الأسباب، وقد سبق قوله عليه السلام: «**أحل ما أكل المرء من كسب يمينه**» إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جواز الأسباب بل على الحض[1] عليها والندب إليها.

وفى الأسباب فوائد منها:

أن الحق سبحانه علم ضعف قلوب العباد وقصورهم عن مشاهدة القسمة وعجزهم عن صدق الثقة، فأباح لهم الأسباب إسناداً لقلوبهم وتثبيتاً لنفوسهم، فكان ذلك من فضله عليهم.

الفائدة الثانية:

أن فى الأسباب صيانة للوجوه عن الابتذال بالسؤال وحفظاً لبهجة الإيمان أن تزال بالطلب من الخلق، فما يعطيك الله من أسباب لا منة فيه لمخلوقٍ عليك[2]؛ إذ لا يمن عليك أحد إن اشترى منك أو استأجرك على عمل شىء، فإنه فى حظه سَعَى ونَفْعَ نفسه قَصَدَ، فالسبب أخذٌ منه بغير منةٍ.

الفائدة الثالثة:

أن فى شغل العباد بأسبابهم شغلاً عن معصيته والتفرغ إلى مخالفته، ألا تراهم إذا تعطل أسبابهم فى أعيادهم وغيرها كيف يتفرغ أهل الغفلة لمخالفة الله وينهمكون على معصية الله؟ فكان شغلهم بالأسباب رحمة من الله عليهم.

الفائدة الرابعة:

أن فى الأسباب والقيام بها رحمةً بالمتجردين ومنةً من الله على المتوجهين لطاعته والمتفرغين لها، ولولا قيام أهل الأسباب بها فكيف كان يصح لصاحب

---

(١) فى المخطوط (الحظ) بالظاء المشالة، والمثبت الصحيح.

(٢) وهذا كثير فى عصرنا أن يقول أحدهم ممتناً على الآخر: "قد اشتريت منك"، "قد بعت لك"، "قد أربحتك".

الخلوة خلوة، ولصاحب المجاهدة مجاهدته؟ فجعل الحق سبحانه أهل الأسباب كالخَدَمَة للمتوجهين إليه والمقبلين عليه.

الفائدة الخامسة:

أن الحق سبحانه أراد من المؤمنين أن يتآلفوا لقوله: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾** [الحجرات:١٠] فكانت الأسباب سبباً لتعارفهم وموجبة لتوادهم، ولا ينكر الأسباب إلا جاهلٌ أو عبدٌ عن الله غافل، ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ لما دعا الناس إلى الله أمرهم بالخروج عن أسبابهم، ولكن أقرهم على ما يرضاه الله منها، ودعاهم إلى وجود الهدى، والقرآن والسنة محشوان بإثبات الأسباب، ولقد أحسن من قال:

ألم تر أن الله قال لمريم * إليك فهزى الجذع تَسَّاقط الرطبْ

ولو شاء أدنى الجذع من غير هزها * إليه ولكن كل شىءٍ له سببْ

أشار إلى قوله سبحانه: **﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾** [مريم:٢٥] فَظَاهَر صلوات الله عليه بين دِرْعين يوم أحد(١)، وأكل ﷺ القثاء بالرطب، وقال: «**هذا يدفع ضرر هذا**» وذلك كثير، وفى قوله ﷺ: «**تغدو خماصاً وتعود بطاناً**» إثبات الأسباب أيضاً؛ لأن غدوها ورواحها سببٌ أقيمت فيه، فهو كغدو الآدميين إلى مكاسبهم ورواحهم إليها، والقول الفصل فى ذلك أنه لابد لك من الأسباب وجوداً، ولابد لك من الغيبة عنها شهوداً، فَأَثْبِتْهَا من حيث أَثْبَتَهَا بحكمته، ولا تستند إليها لعلمك بأحديته، فإن قلت: فما هو الإجمال فى الطلب فى قوله ﷺ: «**فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب**»؟ فاعلم أن الإجمال فى الطلب يحتمل وجوهاً كثيرة، ونحن نذكر لك(٢) منها ما فتح الله به بفضله، فاعلم – رحمك الله – أن الطلب للرزق على قسمين: عبد يطلبه منهمكاً عليه ومتوجهاً بكل همته إليه، وذلك مما يصرف وجهه عن الله؛ لأن الهمة إذا توجهت لشىء انصرفت عما عداه، قال

---

(١) أى: طابق بين الدرعين وارتداهما متطابقين أخذاً بالأسباب.

(٢) فى المخطوط (ذلك) والصحيح المثبت.

الشيخ أبو مدين[١] – رضى الله عنه: ليس للقلب إلا وجهة واحدة إن وجهته إليها انصرفت عن غيرها، وقد قال الله سبحانه: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:٤]؛ أى: ما جعل له من وجهين فى وقت واحد، وذلك لضعف البشرية عن التوجه إلى وجهتين إلا ويقع الخلل فى إحدى الوجهتين والقيام بالوجهة كلها فى الوقت الواحد من غير أن يقع فى شىء منها خلل، إنما ذلك من شأن الإلهية؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] فأفاد ذلك أنه متوجه لأهل السماء ولأهل الأرض، لا يشغله توجهه لأهل الأرض عن توجهه لأهل السماء؛ فلذلك كرر سبحانه ذكر إلهيته فى الآية، ولو لم يكررها لم يُفَدْ ذلك من هذا اللفظ بل مما يوجبه ما هو الحق عليه سبحانه، فتبين لك من هذا أن من طلب الرزق منكباً عليه مشتغلاً عن الله فليس مجملاً فى الطلب، ومن طلبه على غير ذلك فهو مجمل.

وجه ثانٍ:

وهو أن الإجمال فى الطلب أن تطلب من الله ولا تعيِّن قدراً ولا سبباً ولا وقتاً، فيرزقه الحق ما شاء كيف شاء فى أى وقت شاء، وذلك من حسن الأدب فى الطلب، ومن طلب وعيَّن قدراً أو سبباً أو وقتاً فقد تحكَّم على ربه، وأحاطت الغفلة بقلبه، يحكى عن بعضهم أنه كان يقول: وددت لو أنى تركت الأسباب وأعطيت كل يوم رغيفين، يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب، قال: فسجنت ثم كنت فى السجن يؤتى لى كل يوم برغيفين، فطال ذلك علىَّ حتى ضجرت، ففكرت يوماً فى أمرى فقيل لى: إنك طلبت منا كل يوم رغيفين ولم تطلب منا العافية فأعطيناك ما طلبت، فاستغفرتُ من ذلك ورجعت إلى الله، فإذا بباب السجن يقرع فتخلصت وخرجت، فتأدب أيها المؤمن ولا تطلب أن يخرجك من أمرٍ ويدخلك فيما سواه، إذا

---

(١) سبقت ترجمته – رضى الله عنه.

كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم[١] فإن ذلك من سوء الأدب مع الله، فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه، فَرُبَّ تارِكٍ شيئاً وداخلٍ فى غيره ليجد الثروة والراحة فَتَعِبَ وقوبل بوجود التعسير عقوبةً لوجود الاختيار، وفى كلامٍ بيناه فى غير هذا الكتاب:

طلبك للتجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية، وطلبك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية، وافهم – رحمك الله – أن من شأن هذا العدو أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيه، فيحقره عندك لتطلب غير ما أقامك فيه، فيتشوش قلبك ويتكدر وقتك، وذلك أنه يأتى للمتسببين ويقول: لو تركتم الأسباب وتجردتم لأشرقت لكم الأنوار، ولَصَفَتْ منكم القلوب والأسرار قليلاً، وكذلك صنع فلان وفلان، ويكون هذا العبد ليس مقصوداً بالتجريد ولا طاقة له به إنما صلاحه فى الأسباب، فيتركها فيتزلزل إيمانه ويذهب إيقانه ويتوجه إلى الطلب من الخلق وإلى الاهتمام بأمر الرزق فيرمى فى بحر القطعة وذلك قصد العدو منه؛ لأنه إنما يأتيك فى صورة ناصح؛ إذ لو أتاك فى غيرها لم تقبل منه كما أتى آدم وحواء – عليهما السلام – فى صورة ناصح وقال: **﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾** [الأعراف: ٢٠، ٢١] كما تقدم بيانه، وكذلك يأتى للمتجردين ويقول: إلى متى تتركون الأسباب؟ ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلع معه القلوب إلى ما فى أيدى الناس، وتفتح باب الطمع، ولا يمكنك الإسعاف ولا الإيثار ولا القيام بالحقوق، وعوض ما تكون منتظراً ما يفتح به عليك من الخلق، فلو دخلت فى الأسباب بقى غيرك منتظراً ما يفتح عليه منك إلى غير ذلك، ويكون هذا العبد قد طاب وقته وانبسط نوره ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق، فلا

---

(١) أى: فإن ذلك مما يوافق ما هو مكتوب لك فى علم الله الأزلى.

يزال به حتى يعود إلى الأسباب فتصيبه كدرتها وتغشاه ظلمتها، ويعود الدائم[١] فى سببه أحسن حالاً منه؛ لأن، ذلك ما سلك طريقاً ثم رجع عنها، ولا قصد مقصداً ثم انعطف عنه، فافهم واعتصم بالله منه **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [آل عمران:١٠١] وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله فيما هم فيه، وأن يخرجهم عن مختار الله إلى مختارهم لأنفسهم، وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾** [الإسراء:٨٠]، فالمدخل الصدق أن تدخل به لا بنفسك، والمخرج الصدق أيضاً كذلك، فافهم. والذى يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجك كما تولى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب، الشأن أن يتركك السبب، قال بعضهم: تركت السبب كذا كذا مرة فعدت إليه، ثم تركنى السبب فلم أعد إليه.

ودخلت على الشيخ[٢] – رضى الله عنه – وفى عزمى التجريد قائلاً فى نفسى: إن الوصول إلى الله على هذه الحالة بعيد عن الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس[٣]، فقال لى من غير أن أسأله: صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها، فذاق من هذه الطريق[٤] شيئاً فجاء إلىَّ فقال: يا سيدى نخرج عما أنا فيه ونتفرغ لصحبتك، فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسم الله على أيدينا فهو إليك واصل، ثم قال الشيخ ونظر إلىّ: وهكذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله، ولكن كما قال رسول الله ﷺ: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**» قد

---

(١) هذا الموضع منطمس فى المخطوط، والمثبت من المطبوع.

(٢) يعنى: سيدى الإمام أبا العباس المرسى – رضى الله عنه – فهو شيخ تربيته.

(٣) فى الأصل بالباء الموحدة، والصحيح باللام.

(٤) الطريق تذكر وتؤنث فيقال: هذا الطريق، ويقال: هذه الطريق.

يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب من الله ويكون قصدك مناجاته لا عين[١] ما طلبت، وإنما يكون الطلب توسلاً لها، فلذلك قال الشيخ أبو الحسن: لا يكن همك فى دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً عن ربك، وليكن همك مناجاة مولاك.

وقيل: إن موسى – عليه السلام – كان يطوف فى بنى إسرائيل ويقول: من يُحَمِّلُنِي رسالة إلى ربى؟ وذلك لتطول مناجاته مع الله.

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب وأنت تشهد أنك مطلوب بما قسم لك، وأنك مقصود به وليس طلبك موصِّلاً إليه، فيكون طلبك وأنت غريق فى بحر العجز مغموس فى وجود الفاقة، وقد يكون الإجمال فى الطلب أن لا تطلب بحظ البشرية ولكن لإظهار العبودية، كما حكى أن سمنون[٢] المحب كان يقول:

وليس لى فى سواك حظٌ * فكيف ما شئت فاختبرنى[٣]

فابتلى بعلة الأسر وهو احتباس البول، فصبر وتجلد إلى أن جاءه بعض أصحابه وقال: يا أستاذ، سمعتك البارحة وأنت تطلب من الله الشفاء والعافية ولم يكن هو طلب، ثم جاء ثان، ثم جاء ثالث ثم جاء رابع، فعلم أن مراد الحق منه إظهار الحاجة والفاقة، فسأل من الله الشفاء، ثم صار يدور على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

---

(١) فى المخطوط (غير)، والمثبت الصحيح كما فى المطبوع.

(٢) سيدى سمنون: أبو الحسن بن حمزة الخواص، صحب السرى السقطى وغيره، وكان – رضى الله عنه – يتكلم فى المحبة أحسن كلام، وهو من كبار المشايخ، مات بعد أبى القاسم الجنيد على ما قيل.

ومن كلامه: لا يعَبَّر عن شئٍ إلا بما هو أرق منه، ولا شىء أرق من المحبة، فبم يعبَّر عنها؟ وسئل يوماً عن التصوف فقال: هو أن لا تملك شيئاً، ولا يملكك شىء. انظر "الطبقات الكبرى" سيدى الشعرانى (جـ١ صـ١٥٤).

(٣) البيت من بحر البسيط، ووزنه (مُتَفْعلن فاعلن فعولن) مرتين.

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب من الله ما يكفيك ولا تطلب منه ما يطغيك، غير متطلع إلى ما سوى الكفاية[١] بالشره، ولا منبسطاً إليه بالرغبة، وقد علمنا ذلك رسول الله ﷺ إذ قال: «**اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً**» والطالب لِمَا زاد على الكفاية ملوم، وطالب الكفاية غير ملوم، ولذلك جاء فى الحديث عنه ﷺ: «**ولا تلام على كفاف**» ويكفيك فى ذلك ما قال رسول الله ﷺ لثعلبة بن حاطب لما قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال: «**يا ثعلبة قليل تُؤدِّى شكره خير من كثير لا تطيقه**» فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال رسول الله: «**يا ثعلبة قليل تؤدِّى شكره خير من كثير لا تطيقه**» فما زال إلى أن دعا له رسول الله ﷺ بما اختار لنفسه، فكان عاقبة اختياره لنفسه ومخالفته لمختار رسول الله ﷺ له أن كثر ماله حتى تعطل عن بعض الصلوات أن يصليها خلف رسول الله ﷺ، ثم كثر ماله حتى تعطل عن الصلوات أن يصليها مع رسول الله ﷺ إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت أغنامه ومواشيه حتى لم يمكنه صلاة الجمعة أيضاً، ثم جاءه مصدِّق[٢] رسول الله ﷺ فقال: ما أراها إلا الجزية، ما أراها إلا أخت[٣] الجزية وامتنع من دفع الزكاة، وقصته مشهورة فأنزل الله فيه: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا**

---

(١) هناك ما يسمى بحدِّ الكفاف، وهو أقل ما يلزم المرء ليقيم أوده، وحد الكفاية: وهو ما زاد على ذلك حتى يصير له بدل الثوب اثنان وثلاثة، وحد الكفاءة: أن يزيد على ذلك فيمتلك العشرة أثواب، والسيارة والسيارتين، وأن يصير له عدة مساكن، إلى غير ذلك.

(٢) أى: جامع الصدقات (الزكاة).

(٣) فى المخطوط (أخيه).

كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧] وقد يكون الإجمال فى الطب أن يكون طلبك غير شاك فى القسمة ولا تاركاً حفظ الحرمة[١].

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب من الله ما فيه رضاه، وغير الإجمال أن يطلب العبد حظوظ دنياه، قال الله تعالى: **﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** [البقرة:٢٠٠، ٢٠١].

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب ولا تستعجل الإجابة، وغير الإجمال أن تستعجلها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك «**يستجاب لأحدكم ما لم يقل: دعوت فلم يُسْتَجَبْ لى**» وقد دعا موسى وهارون على فرعون فيما حكاه الله عنهما بقوله: **﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾** [يونس:٨٨] فقال سبحانه: **﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** [يونس:٨٩]، وكان بين قول الله لهما: **﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾** وإهلاك فرعون أربعون عاماً.

وقال الشيخ أبو الحسن فى قوله سبحانه: **﴿فَاسْتَقِيمَا﴾** أى: على عدم استعجال ما طلبتما، **﴿وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** قال: هم المستعجلون للإجابة.

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن يطلب وهو شاكر لله إن أُعْطِىَ، شاهداً حسن اختياره إذا مُنِعَ، فرب طالب لا يشكر إن أُعْطِىَ، ولا يشهد حسن اختياره[٢] فى المنع، بل طالب من الله جازم أن المصلحة له أن يعطى، ومن أين لهذا العبد

---

(١) أى: أن يكون تاركاً للاعتداء فى الدعاء والمجاوزة لحد الأدب فيه، فقد ورد النهى عن الاعتداء فيه.

(٢) أى: حسن اختيار الله له فى المنع.

الجاهل أن يحكم على علم الله؟ وأن يعلم ما فى غيب الله؟ وكفى بالعبد جهلاً أن يتجبر على مولاه، بل إذا سألته فسله مفوضاً إليه غير مدبر معه ولا مختار عليه، **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾** [القصص:٦٨] هذا فيما أبهم أمره.

والبيان فى ذلك أن المدعو به على ثلاثة أقسام:

ما هو خير قطعاً، فاطلبه من الله من غير استثناء، كالإيمان والطاعة، وما هو شر قطعاً، يطلب من الله السلامة منه من غير استثناء، كالكفر والمعصية، وما هو مبهم الأمر كالغنى والعز والرفعة، فاطلب من الله قائلاً: إن علمت ذلك خيراً لى، وكذلك سمعته من الشيخ – رضى الله عنه – وقد يكون الإجمال فى الطلب على أن يكونوا فى الطلب على سابق قسمته معتمدين، وأن لا يكونوا إلى طلبهم مستندين.

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن يطلبوا وهم لعدم الاستحقاق شاهدون، فذاك حرى أن يستوجبوا منة رب العالمين، قال الشيخ أبو الحسن: ما طلبت من الله شيئاً إلا وقدمت إساءتى أمامى، يريد – رضى الله عنه – حتى لا أطلب من الله بوصفٍ يستحق العطاء، بل لا يكون طلبه وجود فضله إلا بفضله، فهذه عشرة أوجه فى الإجمال فى الطلب، وليس القصد بها الحصر؛ إذ الأمر أوسع من ذلك، ولكن بحسب ما ناول الغيب وأنعم به المولى سبحانه، وهو كلام صاحب "**الأنوار المحيطة**" فما[1] يأخذ الآخذ منه إلا على حسب نوره، ولا يأخذ من جواهر بحره إلا على قدر قوة غوصه، وكل يفهم على حسب المقام الذى أقيم فيه **﴿يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾** [الرعد:٤] وما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا، واسمع قوله ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**» واختصر فى الكلام إختصاراً، فلو عبر العلماء بالله أبد الآباد عن أسرار الكلمة الواحدة من كلامه لم يحيطوا بها علماً ولم

---

(١) "ما" فى هذا الموضع بمعنى "ليس".

يقدروها فهماً، وقد قال بعضهم: عملت بهذا الحديث سبعين عاماً وما فرغت منـه، وهو قوله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» وصدق – رضى الله عنه – ولو مكث عمر الدنيا أجمع وأبد الآباد لم يفرغ من حقوق هذا الحديث وما أودع فيه من غرائب العلوم وأسرار الفهوم.

انعطافٌ

انظر إلى قوله ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» فتراه يدل على الأمر بالتوكل على الله لا على نفى الأسباب، بل يدل على إثباتها لقوله ﷺ: «**تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» فقد أثبت لها غدوها ورواحها، وهو سببها، ونفى عنها الادخار، فكأنه ﷺ يقول: لو توكلتم على الله حق توكله لما ادخرتم، ولأغناكم التوكل على الله عن الادخار معه، ورزقكم كما تُرْزق الطير، تؤتى رزق يومها ولا تدخر لغدها ثقةً منها بأن الله لا يُضَيِّعُهَا، فأنتم أيها المؤمنون أولى بذلك، فأفاد ﷺ أن الادخار إنما هو من ضعف اليقين، فإن قلت: أكُلُّ ادخارٍ هذا حكمه أم هو مختلف الحال؟

فاعلم أن الادخار على ثلاثة أقسام:

ادخار الظالمين، وادخار المقتصدين، وادخار السابقين.

فأما القسم الأول:

فهم المدخرون بخلاً واستكباراً، الممسكون مباهاةً وافتخاراً، استحكمت الغفلة على قلوبهم، واستولى الشَّرَهُ على نفوسهم، فهم لا يفرغ من الدنيا نهمهم، ولا يتوجه إلى غيرها همتهم، الثابت فقرهم وإن كانوا أغنياء، الظاهر ذلهم وإن كانوا أعزاء، فهم من الدنيا لا يشبعون، وعن طلبها لا يفترون، تلاعبت بهم الأسباب وتفرقت بهم الأرباب ﴿**أُولَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف:١٧٩] لم يبق فى قلوبهم متسع لوعى الحكمة واستماع الموعظة، فقلَّ أن ترفع أعمالهم أو تزكو أحوالهم؛ لأن خوف الفقر قد سكن قلوبهم، وقد قال ﷺ: «**من سكن خوف الفقر قلبه قَلَّ أن يُرْفَعَ له عمل**» فيجب على المؤمن المعافَى مما هم فيه داخلون، والسالم مما هم فيه منصرفون، والمتطهر مما هم به متدنسون أن يحمد الله على ما خصه به من أفضاله وأنعم به عليه من نواله، وقل إذا رأيتهم: الحمد لله

الذى عافانى مما ابتلاهم به وفضلنى على كثيرٍ ممن خلق تفضيلا، كما أنك إذا رأيت مصاباً فى بدنه حمدت الله الذى عافاك، وشهدت ما أنعم به عليك مولاك، كذلك يجب عليك وأحرى أن تشكر الله إذا عافاك من أسباب الدنيا والحرص فيها، وابتلى بذلك غيرك من غير أن تحتقرهم، بل اجعل عوض احتقارك لهم رحمتك لهم، وعوض دعائك عليهم دعاءك لهم، واقتدِ بما فعل العارف بالله معروفٌ[١] فيما فعله فهو عين المعروف، عَبَر هو وأصحابه على دجلة، فرأى أصحابه سمارية فيها قوم أهل لهو وفسوق وطرب فقالوا: يا أستاذ ادع الله عليهم، فرفع يديه وقال: اللهم كما فرحتهم فى الدنيا فرحهم فى الآخرة، فقالوا: يا أستاذ إنما قلنا لك: ادع عليهم، قال: إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم ولا يضركم من ذلك شىء، فألصقت السمارية فى الوقت إلى البر ونزل الرجال ناحية والنساء ناحية، فتطهَّر هؤلاء وهؤلاء، وخرجوا إلى الله تائبين، فكان منهم عُبَّاد وزهاد ببركات دعوة معروف، وإذا نظرت إلى[٢] أهل التخليط والإساءة فاعلم أنه محكوم عليهم بسابق العلم ونافذ المشيئة[٣]، وإن لم تفعل خيف عليك أن تبتلى بمثل محنتهم، وأن تُقْطَع لقطعتهم،

---

(١) سيدى معروف الكرخى: أبو محفوظ بن فيروز، من جملة المشايخ المشهورين بالزهد والورع والفتوة، مجاب الدعوة، يستقى بقبره، وهو من موالى على بن موسى الرضا – رضى الله عنه – صحب داود الطائى، ومات ببغداد، ودفن بها سنة مائتين، وقبره ظاهر يزار ليلاً ونهاراً – رضى الله عنه.

من كلامه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد بعبدٍ شراً أغلق عليه باب العمل، وفتح له باب الجدل.

وكان يقول: العارف يرجع إلى الدنيا اضطراراً، والمفتون يرجع إليها اختياراً.

وكان يقول: إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين، وكرهه كل من فى قلبه مرض.

انظر "الطبقات الكبرى" سيدى الشعرانى (جـ١ صـ١٢٤: صـ١٢٥).

(٢) لفظ (إلى) ساقط من المخطوط.

(٣) فيرى أن هذا قضاء الله عليهم، فينظر إليهم نظر رحمةٍ لا نظر كبر واحتقار، ويدعو لهم بالهداية ويتمناها لهم.

واسمع ما قال الشيخ أبو الحسن: أكرمْ المؤمنين وإن كانوا عصاةً فاسقين، ومُرْهُمْ بالمعروف وانههم عن المنكر واهجرهم رحمةً بهم لا تقززاً لهم، وقال – رضى الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟ ويكفيك فى تعظيم المؤمنين وإن كانوا عن الله غافلين قول رب العالمين: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [فاطر:٣٢] فانظر كيف أثبت لهم الاصطفائية مع وجود ظلمهم ولم يجعل ظلمهم مخرجاً لهم من اصطفائيته ولا من وراثة كتابه، اصطفاهم بالإيمان وإن كانوا ظالمين بوجود العصيان، فسبحان الواسع الرحمة العظيم المنة، واعلم أنه لابد فى مملكته من عبادٍ هم نصيب الحِلْم ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ووقوع الشفاعة، وافهم ما قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون حتى يستغفروا الله فيغفر لهم»** وقوله ﷺ: **«شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»** وجاء رجل إلى الشيخ أبى الحسن فقال: يا سيدى كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت، وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا، فقال: يا هذا كأنك تريد أن لايُعْصَى الله فى مملكته، من أحب أن لا يعصى الله فى مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته وأن لا تكون شفاعة رسول الله ﷺ. انتهى كلام الشيخ – رضى الله عنه – وكم من مذنب كثرة إساءته وذلة مخالفته أوجبت له الرحمة من ربه، فكن له راحماً وبقدر إيمانه وإن عصى عالماً.

القسم الثانى من أقسام الادخار:

ادخار المقتصدين، وهم الذين يدخرون لا استكباراً ولا مباهاة ولا افتخاراً إنما علموا من نفوسهم الاضطراب عند الفقد فعلموا أنهم إن لم يدخروا تشوش عليهم إيمانهم وتزلزل إيقانهم، فادخروا لضعفهم عن حال المتوكلين، وعلماً منهم بعجزهم عن مقام اليقين، وقد قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوى خير عند الله من**

المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير» فالمؤمن القوى هو الذى[١] أشرق فى قلبه نور اليقين، فعلم أن الله سائق إليه رزقه ادخر أو لم يدخر، وأنه إذا لم يدخر ادخر الحق له، وأن المدخرين مُحالون على مدخراتهم، وأهل التوكل مُحَالون على الله لا على شيءٍ دونه، فالمؤمن القوى لم يستند إلى الأسباب سواء كان فيها أو لم يكن، والمؤمن الضعيف الداخل فى الأسباب مع المراكنة والخارج عنها مع التطلع إليها.

القسم الثالث بالنسبة إلى الادخار وعدمه:

السابقون، وهم الذين سبقوا إلى الله لِتَخَلُّصَ قلوبهم مما سواه فلم تعقهم العوائق، ولم يشغلهم عن الله العلائق، فسبقوا إليه؛ إذ لا مانع لهم، وإنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلق بغير الله، فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله جذبها ذلك التعلق إلى ما به تعلقت، فَكَرَّتْ راجعةً إليه ومقبلةً عليه، فالحضرة محرمة على مَنْ هذا وصفه وممنوعة ممن هذا نعته، قال بعض العارفين: أتظن أن تدخل الحضرة الإلهية وشيء من ورائك يجذبك؟

وافهم ههنا قوله سبحانه: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩] وأن القلب السليم هو الذى لا تعلق له بشيءٍ دون الله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام:٩٤] يفهم منه أيضاً أنه لا يصح مجيئك إلى الله بالوصول إليه إلا إذا كنت فرداً مما سواه، وقوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ [الضحى:٦] يفهم منه أنه لا يُؤويك إليه إلا إذا صح يُتْمُكَ مما سواه، وقوله عليه السلام: «**إن الله وتر يحب الوتر**» أى يحب القلب الذى لا يشفع بمشوبات الآثار، فكانت هذه القلوب لله وبالله، تركوا الله يتصرف لهم فلم يكلهم إلى أنفسهم، ولم يدعهم لتدبيرهم، فهم أهل الحضرة المفاتحون بعين المنة، لا يقتطعهم عن الله محاسن الآثار، ولا يشغلهم عنه بهجة الحسن المُعَار، ولنا فى هذا المعنى:

---

(١) لفظ (الذى) ليس بالأصل.

يا بهجة الحسن التى ما مثلها * من بهجةٍ طرحت على الأكوان
لى فيك معنى ما تبدَّى سره * إلا ثنى طرفى ومد عنانى[1]

وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده معه، وهذا حال أقوام تولتهم الرعاية واكتنفتهم العناية، فأى تدبير لهؤلاء؟ أم كيف يمكن هؤلاء أن يكونوا من المدخرين وهم فى حضرة رب العالمين؟ وإن ادخروا لم يكونوا على ما ادخروه معتمدين، أم كيف يمكنهم أن يكونوا إلى سواه مستندين وهم لوجود الأحدية مشاهدين؟ وقال الشيخ أبو الحسن - رضى الله عنه: قوى علىَّ الشهود مرة فسألته أن يسترد ذلك عنى فقيل له: لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد صفيه لم يفعل، ولكن سله أن يقويك، فسألته فقوانى، فمن كان هذا حاله كيف يحتاج إلى الادخار؟ أم كيف يمكنه أن يستند إلى الآثار، وكفى بالمؤمن أن يدخر إيماناً بالله وثقةً به وتوكلاً عليه، وأهل الفهم عن الله توكلوا على الله فكان هو المدخر لهم، واستحفظوه فكان الحافظ لهم، وكانوا له وبه، فكان بمعونته لهم، فكفاهم ما أهمهم، وصرف عنهم ما أغمهم، اشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم علماً منهم بأنه لا يكلهم، ومن فضله لا يمنعهم، فدخلوا فى الراحة ووقعوا فى جنة التسليم ولذاذة التفويض، فرفع الله بذلك مقدارهم وكَمَّل أنوارهم، ويحق أن يرفع المحاسبة عنهم كما قال رسول الله ﷺ: «**سبعون ألفاً من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب**، قيل: من هم يا رسول الله؟ **قال: هم الذين لا يَرْقُون ولا يَستَرقُون ولا يتطيَّرون**[2] **وعلى ربهم يتوكلون**»، وكيف يحاسب من لا شيء له؟ أم كيف يسأل عن فعله من يشهد أنه لا فعل له؟ وإنما يحاسب المدعون ويناقش

---

(١) البيتان من بحر الكامل.

(٢) أى: لا يتشاءمون، ولا يلتفتون إلى ما يسميه الناس فألاً سيئاً.

الغافلون الذين يشهدون أنهم مالكون أو مع الله فاعلون، ومن لم يدخر إلا[١] ثقةً بالله وتوكلاً عليه ساق الله له رزقه بوجود الهناء، وأوجد فى قلبه وجود الغنى.

أفلس بعض العارفين فقال لزوجته: أخْرِجى كل ما فى البيت فتصدقى بـه، ففعلت إلا الرحا فإنها قالت: لعلنا نحتاج إليها ولا نجد مثلها، فهى قد فعلت ذلك وإذا بالباب يدق فقيل: هذا قمح أرسل للشيخ، فملئت الدار قمحاً، فلما رجـع العـارف ونظر قال: أخرجت كل ما فى الدار؟ قالت: نعم، قال: فليس الأمر كذلك، فقالت: ما تركت إلا الرحا خيفة أن نحتاج إليها، فقال: لو أخرجت الرحا لجاءك دقيق ولكـن أبقيتها فجاءك ما به تتعبين، وإن ادخر السابقون فلا لأنفسهم، ولكنْ خـزانٌ أمنـاءٌ وعبيد كبراء، إن أمسكوا الدنيا أمسكوها بحق، وإن بذلوها بذلوها بحـق (ولـيس الممسك لها بحق)[٢] بدون الباذل لها بحق، ولا يشهدون أنهم مع الله مالكون، بل ما فى أيديهم يشهدون من ودائع الله ويتصرفون فيه بالنيابة عـن الله، سـمعوا قولـه سبحانه: ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ [الحديد:٧]؛ فعلموا أن لا مِلْك لهم مع الله وإنما هى نسبة أضيفت إليك، وإضافة مَنٍّ بها عليك ليرى وهو العلـيم الخبيـر أتقف مع ظاهرها أم تنفذ إلى أسرارها، وكذلك كان الأنبياء صلوات الله علـيهم لا تجب الزكاة عليهم لأنهم لا ملك لهم مع الله حتى تجب عليهم الزكاة فيه، وإنما تجب عليك زكاة ما أنت له مالك، إنما كان فى أيديهم من ودائع الله يبذلونه فى أوان بذله، ويمنعونه فى غير محله؛ ولأن الزكاة إنما هى طهر لما عساه أن يكـون عمـن أوجبت عليه لقوله سبحانه: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَـدَقَةً تُطَهِّـرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِم بِهَـا**﴾ [التوبة:١٠٣] والأنبياء مبرءون من الدنس لوجود العصمة، ولأجل ذلك لم يوجـب أبو حنيفة على الصبيان زكاة[٣] لعدم دنس المخالفة، والمخالفة لا تكـون إلا بعـد

(١) لفظة (إلا) غير موجودة بالمخطوط، والصحيح إثباتها لصحة المعنى.

(٢) ما بين القوسين ساقط من المخطوط، وأثبته من المطبوع.

(٣) أى: فى زكاة الحلىَ للصغير.

جريان التكليف وذلك بعد البلوغ، وافهم ههنا قوله ﷺ: «**نحن معاشـر الأنبيـاء لا نورث، ما تركنا صدقة**» يتبين لك ما ذكرناه ويتضح ما قررناه، وإذا كـان أهـل المعرفة بالله المشاهدين لأحديته لا يشهدون لهم مع الله ملكاً، فما ظنـك بالأنبيـاء والرسل وأهل التوحيد والمعرفة؟ إنما غرفوا من بحارهم واقتبسوا مـن أنـوارهم، يحكى أن الشافعى وأحمد بن حنبل – رضى الله عنهما – كانا جالسين إذ أقبل شيبان الراعى، فقال أحمد بن حنبل للشافعى: أريد أن أسأل هذا المشار إليه فى هذا الزمن، فقال الشافعى: لا تفعل[١]، فقال: لابد من ذلك، فقال: يا شيبان، ما تقول فيمن نسـى أربع سجدات من أربع ركعات؟ فقال: يا أحمد، هذا قلبٌ غافل عـن الله يجـب أن يؤدب حتى لا يعود إلى مثل ذلك، فخر أحمد مغشياً عليه، ثم أفاق ثم سأله فقال: ما تقول فيمن له أربعون شاة؟ فقال: على مذهبنا أو مذهبكم؟ فقال: وهما مذهبان؟ قال: نعم، أما على مذهبكم ففى الأربعين شاة شاة، وأما على مذهبنا: فالعبد لا يملك مـع سيده شيئاً[٢].

وقد جاء فى الحديث: أن النبى ﷺ ادخر قوت سنة، فإما أن يكون لك لمـا قلناه أولاً من أن ادخار الأنبياء إنما هو إمساك بالأمانة متحينين[٣] به وقت يصلح إنفاقه، أو إنما ادخر عليه السلام لأجل عائلته، أو ليبين[٤] جواز الادخار لأمته، وأنه إذا لم تقع الحوالة عليه[٥] لا ينافى التوكل، ومما يدلك على أن المراد إنما هو ليبين جوازه، فإنه كان ﷺ أغلب أحواله عدم الادخار وإنما ادخر توسـعةً علـى أمتـه ورحمةً بهم وإشفاقاً على الضعفاء منهم؛ إذ لو لم يدخر لم يمكن لمؤمن أن يـدخر

---

(١) وإنما طلب منه الإمام الشافعى – رضى الله عنه – ذلك تأدباً مع أوليائه.

(٢) أى: أنه حين يخرج الشاة عن الأربعين فإنما أخرج ما هو ملـك لله إلـى الله، فـلا يـرى العارف بالله فى ذلك ملكاً لنفسه فيما بين يديه.

(٣) أى: منتظرين حيناً يصلح لإنفاقه.

(٤) فى المخطوط (ليس) والمثبت الصحيح.

(٥) أى: التحول إليه بالقلب عن الله، والاعتماد عليه لا على الله تعالى.

بعده؛ ففعل ذلك ليبين حكمه، وقد قال ﷺ: «**إنما أُنْسَى أو أُنَسَّى لأَسُنَّ**» فبين لك عليه السلام أن النسيان ليس من شأنه ولا من وصفه وإنما يدخل فيه ليبين حكمه وما يتعلق به لأمته، فافهم.

وفى الحديث: «**طالب العلم تكفل الله برزقه**» اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب العزيز أو فى السنة إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة[1]، قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾ [فاطر:٢٨]، فبين أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية، وكذلك قوله: ﴿**قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ**﴾ [النحل:٢٧]، ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ [آل عمران:٧]، ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه:١١٤] وقوله ﷺ: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم**»، وقوله: «**العلماء ورثة الأنبياء**» وقوله ههنا: «**طالب العلم تكفل الله برزقه**» إنما المراد بالعلم فى هذه المواطن العلم النافع، القاهر للهوى، القامع للدنيا، وذلك متعين بالضرورة لأن كلام الله وكلام رسوله ﷺ أجلُّ من أن يُحْمَلَ على غير هذا، وقد بينا ذلك فى غير هذا الكتاب، والعلم النافع هو الذى يستعان به على طاعة الله ويُلْزِمُكَ المخافة من الله والوقوف على حدود الله، وهو علم المعرفة بالله، ويشمل العلم النافع العلم بالله والعلم بما به أمر الله إذا كان تعلمه لله، لقوله عليه السلام: «**طالب العلم تكفل الله برزقه**» أى: تكفل له أن يوصله له مع الهناء والعزة والسلامة من الحجبة، وإنما أولنا هذا التأويل وأن معنى التكفل تكفلٌ خاصٌ وذلك لأن الحق سبحانه متكفل برزق العباد أجمع طلبوا هذا العلم أو لم يطلبوه، فدل على أن هذه الكفالة كفالة خاصة كما ذكرنا؛ لأنه أفردها بالذكر، ولهذا المعنى قال الشيخ – رضى الله عنه – لما قال: "وأعطنا كذا" قال: والرزق الهنيء الذى لا حجاب به فى الدنيا ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه فى الآخرة على بساط علم التوحيد والشرع سالمين من الهوى والشهوة والطبع، فسأل من الله الرزق الهنيء وهو

---

(١) فى المخطوط (المخالفة) وهو سهو من الناسخ.

الرزق المتكفل به لطالب العلم، ثم فسر الرزق الهنىء بأنه الذى لا حجاب معه فى الدنيا؛ لأن ما وقعت فيه الحجبة فلا هناء فيه؛ إذ الحجبة توجب تكدُّر السر بـالمنع عن المحاضرة والصد عن المفاتحة لا على ما يفهمه العموم من أن الرزق الهنىء الذى حصل من غير وجود تعب ولا نصب، فالهناء عند أهل الغفلة فيما يرجع إلى الأبدان، وعند أهل الفهم فيما يرجع إلى القلوب، ووقوع الحجبة فى الـرزق إمـا بشهود الأسباب والغفلة عن الله، وإما بأن تتناوله وليس قصدك التقوِّى على طاعـة الله، فالأول حجبة فى الحصول، والثانى حجبة فى التناول، وقول الشيخ: ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه فى الآخرة، فالسؤال يكون عن حقوق النعم لقوله تعالى: **﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾** [التكاثر:٨] وأكل النبى ﷺ وبعض أصحابه طعاماً ثم قال: «**والله لتسألن عن نعيم هذا اليوم**»، وكان الشيخ – رضى الله عنه – يقول:

السؤال على قسمين:

سؤال تشريف، وسؤال تعنيف، فسؤال أهل الموافقة والعناية سؤال تشريف، وسؤال أهل الغفلة عن الله والإعراض عنه سؤال تعنيف، وافهم – رحمك الله – أن الحق سبحانه إنما يسأل أهل الصدق وإن كان هو العالم بأخبارهم وبخفِىِّ أسرارهم ليظهر مرتبة صدقهم للعباد وينشر محاسنهم فى المعاد، كما يقول السيد لعبده: ماذا صنعت فى أمر كذا؟ وهو يعلم أنه أحكمه وأتقنه، ولكن أراد أن يعلم الحاضـرون اعتناءه بأمره وعنايته بشأنه فافهم، وقول الشيخ: ولا حسـاب فالحسـاب نتيجـة السؤال، فإذا سلموا من السؤال سلموا من الحساب، وإذا سلموا من السؤال والحساب سلموا من العقوبة فذكرها الشيخ وإن كانت متلازمة ليبين ما يستلزم هذا الرزق من المنن التى[١] لو انفردت واحدة منها لكان حرياً أن يطلب، وقول الشيخ – رضى الله عنه: على بساط علم التوحيد، أى على أن أشـهدك فيمـا رزقتنـى، وأراك فيمـا أطعمتنى فلا أشهد ذلك من غيرك، ولا أضيفه لأحد من خلقك، وكذلك أهـل الله لا

---

(١) فى المخطوط (الذى) والمثبت أولى.

يأكلون إلا على مائدة الله، أطعمهم مَنْ أطعمهم لعلمهم أن غير الله لا يملك معه شيئاً، فسقط بذلك شهود الخلق عن قلوبهم فلم يصرفوا لغير الله حبهم، ولا وجهوا لمن سواه ودهم؛ إذ رأوا أنه هو الذى أطعمهم ومنحهم من فضله وأكرمهم، قال الشيخ أبو الحسن يوماً: إنا لا نحب إلا الله تعالى؛ أى: لا يتوجه الحب منا إلى الخلق، فقال له رجل: قد أبى ذلك جدك يا سيدى بقوله: «**جُبِلَتْ القلوب على حب من أحسن إليها**»، فقال: نعم نحن قوم لا نرى المحسن إلا الله فلذلك جبلت قلوبنا على محبته، ومن رأى أن المطعم هو الحق سبحانه تجدد عنده مزيد الحب على حسب ما يتجدد من تناول النعم، لقوله عليه السلام: «**أحبوا الله لما يغذوكم من منته**» وقد سبق بيانه، ومن رأى أن الله هو المطعم له صانته هذه المطالعة عن الذل للخلق أو أن يميل قلبه بالحب لغير الملك الحق، ألم تسمع قول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**﴾ [الشعراء:٧٩] فشهد لله بانفراده بذلك، واعترف له بوحدانيته فيه، وقول الشيخ – رضى الله عنه: على بساط علم التوحيد والشرع؛ لأن من استرسل مع إطلاق التوحيد ورأى أن الملك لله وأن لا ملك لغيره معه ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به فى بحر الزندقة، وعاد حاله بالوبال عليه، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيداً وبالشريعة مقيداً، وكذلك المحقق، فلا منطلقاً مع الحقيقة ولا واقفاً مع ظاهر إسناد الشريعة، وكان بين ذلك قواماً، فالوقوف مع ظواهر الإسناد شرك، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقييد بالشريعة تعطيل، ومقام الهداية فيما بين ذلك ﴿**مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ [النحل:٦٦].

فصل

واعلم أنه يرد فى شأن الرزق أمور وتعرض فيه عوارض، وقد ذكر الشيخ – رضى الله عنه – كثيراً منها بقوله – رضى الله عنه: وسخّرْ لى أمر هذا الرزق، واعصمنى من الحرص والتعب فى طلبه، ومن شُغْلِ القلب وتَعلُّق الهم بـه، ومـن الذل للخلق بسببه، ومن التفكر والتدبير فى تحصيله، ومـن الشـح والبخـل بعـد حصوله.

وليس العوارض الواردة فى شأن الرزق بمنحصرة حتى تُستوفى، فلنـتكلم على ما قال الشيخ – رضى الله عنه:

فاعلم أن للعبد بالنسبة إلى الرزق ثلاثة أحوال:

حال قبل أن يرزقه وهى حالة السعى، وحال بعد ذلك وهى حالة الحصول، وحال بعد انقضائه وهى الحالة الثالثة، فأما ما يعرض قبـل حصـوله فـالحرص والتعب فى طلبه وشغل القلب وتعلق الهم به والذل للخلق بسببه والتفكر والتدبير فى تحصيله، فأما الحرص فهو الرغبة القائمة فى النفس فى التحصيل لـه والانكبـاب على ذلك، وهو ينشأ عن فقدان الثقة وضعف اليقين، وهما ناشئان عن فقدان النور، وفقدان النور ناشئ عن وجود الحجبة؛ إذ لو كان القلب بأنوار المشـاهدة معمـوراً وبمنن الله مغموراً لم تطرقه طوارق الحرص، ولو انبسط نور اليقين على القلـب لكشف له عن ساق القسمة فلم يمكنه الحرص، وعلم العبد أن له عند الله قسمة لابد أن يوصلها إليه، وأما التعب فى طلبه فإما أن يكون تعب الظواهر ويكون الاستعاذة منه؛ لأنه إذا استولى على الطالب للرزق التعب فى الظاهر شغله ذلك عن القيـام بالأوامر، والرزق مع الراحة فيه إعانة على التفرغ إلى طاعة الله والقيام بخدمتـه، وإن كان التعب هو تعب القلوب لا الظواهر فهو أولى بأن يستعاذ منه؛ وذلـك لأن القلوب يتعبها تكلُّفها فى طلب الرزق والفكرة فيه ويثقلها ما حملت مـن ذلـك، ولا

راحة لها إلا بالتوكل على الله؛ لأن المتوكل على الله وضع أثقاله والله سبحانه يحملها عنه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، ثم قال الشيخ – رضى الله عنه: ومِنْ شُغْل القلب وتعلق الهم به، فشغل القلب بأمر الرزق قاطع عظيم، حتى قال الشيخ أبو الحسن – رضى الله عنه: أكثر ما حجب الخلق عن الله شيئان: هَمُّ الرزق وخوف الخَلْق، وهما أشد الحجابين، وذلك أن أكثر الناس قد يخلو من هم خوف الخلق ولا يخلو من هم الرزق إلا قليل، لا سيما وشاهد الفاقة قائم بوجودك وأنت مفتقر إلى ما يقيم بنيتك ويشد قوتك، وقوله: وتعلق الهم به، أى تعلق الهمة بأمر الرزق توجهاً واستغراقاً حتى لا يبقى فيه متسع لغيره، وهذه حالة توجب القُطْعة وتكشف أنوار الوُصلة، وينادى على صاحبه بخراب قلبه من نور اليقين وفلسه من القوة والتمكين ومن الذل للخلق بسببه، فاعلم أن مَنْ ضعف يقينه وقل من قسمة العقل نصيبه فالذلة لازمة له[1] لطمعه فى الخلق ولعدم ثقته بالملك الحق؛ وذلك لأنه لم يشهد سابق قسمة الله ولم يظفر بصدق وعده، فذل للخلق متملقاً ولجأ إليهم متعلقاً، وذلك عقوبة الغفلة عن الله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ [طه:١٢٧] ولو صح إيمانه ويقينه بالله لكان بذلك عزيزاً ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فعزة المؤمن بربه، لا يعتز بغيره لعلمه أن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩] وأنه العزيز فلا عزيز معه، والمعز فلا معز معه، فأعزته الثقة ونصره التوكل، فلم يَهُنْ لصدق ثقته بربه فى قسمته، ولم يحزن لاعتماده عليه فى وجود منته سامعاً قول الله سبحانه: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، فعزة المؤمن بترك الطمع فى الخلق، ووجود الثقة بالملك الحق[2]، أبى له إيمانه أن يرفع حاجته لغير ربه أو أن يصرف لما سواه توجه قلبه، ولذلك قال بعضهم:

---

(١) وفى الحديث: «من أذل نفسه للناس أذله الله».

(٢) ومما ينسب لسيدى الإمام الشافعى قوله:=

حرام على من وحد الله ربه * وأفرده أن يحتذى أحداً فردا
ويا صاحبى قف لى مع الحق وقفة * أموت بها وَجْداً وأحيا بها وَجْدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها * فذا المُلْك مُلْكٌ لا يباع ولا يهدى[(١)]

ومن حرره الله من رِقّ الطمع وأعزه بوجود الورع فقد أجزل عليه مننه وكمل عليه نعمته، وإن الله قد كساك أيها المؤمن خُلَعاً عديدة منها خلعة الإيمان والمعرفة والطاعة والسنة، فلا تدنسها بالطمع فى المخلوقين وبالاستناد إلى غير رب العالمين.

قال الشيخ أبو الحسن: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقال لى: «**يا علىُّ طهِّرْ ثيابك من الدنس تحظَ بمدد الله فى كل نَفَس**»، فقلت: يا رسول الله وما ثيابى؟ فقال: «**اعلم أن الله كساك حلة الإيمان وحلة المعرفة وحلة التوحيد وحلة المحبة**»، قال: ففهمت حينئذ قوله سبحانه: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]. واعلم – رحمك الله – أن رفع الهمة لسالكى طريق الآخرة عن الخلق وعدم التعرض لهم[(٢)] أزين لهم من الحلى للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس، ومَنْ خلعت عليه خلعة المَلِكِ فحفظها وصانها فحرى أن تدام له وأن لا تسلب عنه، والمدنس لخُلَع المواهب فحرى أن لا تترك له، فلا تدنس أيها الأخ إيمانك بطمعك فى المخلوقين، ولا تجعلن اعتمادك إلا على رب العالمين، فإن اعتززت بالله دام عزك

رأيت القناعة رأس الغنى * فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يرانى على بابه * ولا ذا يرانى به منهمك
غنىٌ بلا مالٍ عن الناس كلهم * أمرُّ عليهم شبه الملك

(١) الأبيات من بحر الطويل.
(٢) فى المخطوط (له) والمثبت الصحيح.

بدوام من اعتززت به، وإن اعتززت بغيره فلا بقاء لعزك؛ إذ لا بقاء لمن أنت به معتز، أنشد بعض الفضلاء لنفسه:

ليكن بربك كل عِزِّ * كَ تستقر وتثبت

فإن اعتززت بمن يمو * تُ فإن عزك ميت[1]

ودخل إنسان على بعض العارفين وهو يبكى فقال: ما شأنك؟ قال: مات أستاذى، فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت ويقال لك: إذا اعتززت بغير الله لفقدته، وإن استندت إلى غيره عدمته؟ **﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾** [طه:٩٧، ٩٨].

وكن أيها العبد إبراهيمياً، فقد قال أبوك إبراهيم – صلوات الله عليه وسلامه: **﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾** [الأنعام:٧٦] وما سوى الله آفل[2] إما وجوداً وإما إمكاناً، وقد قال سبحانه: **﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾** [الحج:٧٨] فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم، ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه لما زُجَّ به[3] فى المنجنيق تعرض له جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: سله، قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فانظر كيف رفع إبراهيم – صلوات الله عليه – همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله؛ فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله[4]، وأنعم عليه بنواله وإِفْضَاله، وخصه بوجود إقباله، ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله، وصرف الهمة بالود إلى الله لقوله:

---

(١) البيتان من بحر الكامل.

(٢) آفل: غائب ذاهب.

(٣) فى المخطوط (أزج به) والصحيح المثبت.

(٤) النكال: العذاب.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٧] والمعنى إن أردت الدلالة عليه فهو فى اليأس من الناس[١]، وقد قال الشيخ أبو الحسن: أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا آيس من نفع غيرى لنفسى؟ ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى؟ وهذا هو الكيمياء والإكسير[٢] الذى من حصل له حصل له غنىً لا فاقة فيه[٣]، وعزاً لا ذل معه[٤]، وإنفاقاً لا نفاد له[٥]، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله، قال الشيخ أبو الحسن: صحبنى إنسان وكان ثقيلاً علىَّ فبسطته يوماً ببسطٍ وقلت: يا ولدى ما حاجتك ولِمَ صحبتنى؟ قال: يا سيدى قيل لى: إنك تعلم الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك، فقلت له: صدقت وصدق من حدثك ولكن إخالك[٦] لا تقبل، فقال: بل أقبل، فقلت له: نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين: أعداء وأحباء، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يردنى الله بها فقطعت نظرى عنهم، ونظرت إلى الأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يردنى الله به فقطعت يأسى منهم، وتعلقت بالله تعالى فقيل لى: إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمناه لك، وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء فقال: أخرج الطمع من قلبك واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك، وليس يدل على فهم العبد كثرة

---

(١) أى: فى مقام اليأس من الناس، والبعد عن النظر إلى أنهم المسببون للأشياء، كما قال سيدى الإمام الشافعى – رضى الله عنه:

وارحل إلى رب العباد * فكل ما يأتيك منه

(٢) الإكسير: بكسر الهمزة هى الكيمياء أيضاً. "القاموس المحيط".

(٣) لأنه ينفق من كنوز فضل الله المعنوية ولو شاء الحسية، فهى فى متناوله إن أراد.

(٤) لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فلا عز إلا فى هذا العز.

(٥) لأن ما عندنا ينفد، وما عند الله باقٍ لا يعرض له الزوال.

(٦) أى: أظنك، بكسر الهمزة وتفتح فى لُغيَّة.

عمله ولا مداومته على وِرْدِهِ[١]، إنما يدل على نوره غناه بربه، وانحباسه إليه بقلبه، وتحرزه من رق الطمع[٢]، وتحلّيه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]، فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله، والفهم هو ما ذكرناه من الاعتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله، وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه، وتطهَّر من الطمع فى الخلق، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورَفْع الهمة عنهم.

وقَدِم على بن أبى طالب – رضى الله عنه – البصرة فدخل جامعها فوجد القصاصين يقصون، فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصرى فقال: يا فتى إنى سائلك عن أمر فإن أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتاً وهدياً، فقال الحسن: سل عما شئت فقال: ما مِلاَك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع[٣]، قال: اجلس فمثلك يتكلم على الناس، وسمعت شيخنا – رضى الله عنه – يقول: كنت فى ابتداء أمرى بثغر الإسكندرية حيث أتى[٤] إلىَّ

(١) فى المخطوط (وروده) والصحيح المثبت.

(٢) ويروى عن الشافعى – رضى الله عنه – قوله:

ما الذل إلا فى الطمع * من راجع الله رجع

(٣) فإن الطمع يتولد عنه الحرص على جمع ما عند الغير، فإن لم يوجد حصل له الحقد عليه، ومن ثم يحصل له الحسد، وكفى بالحسد مأكلة للحسنات فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وبئس قلب عبدٍ امتلأ حقداً وحسداً وطمعاً، وقد يئول به الأمر إلى محاولة امتلاك ما يطمع فيه بالسرقة، وإن كان عرضاً قد يتعرض لانتهاكه، إلى غير ذلك من الأمور والفواحش التى يولدها الطمع، أما إذا قصر عين قلبه عن التطلع إلى ما فى أيدى الغير لكان خيراً جزيلاً عميماً وشرفاً كبيراً.

(٤) زيادة غير موجودة بالمخطوط.

بعض من يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ثم قلت فى نفسى: فلعله لا يأخذه منى، فهتف بى هاتف السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين، وسمعته يقول: صاحب الطمع لا يشبع أبداً، ألا ترى حروفه كلها مجوفة الطاء والميم والعين؟ فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فى شأن الرزق؛ فقد سبقت قسمته وجودك وتقدم ثبوته ظهورك، واسمع ما قال بعض المشايخ: أيها الرجل ما قُدِّرَ لمَاضغَيْك أن يمضغاه فلابد أن يمضغاه، فكله ويْحَكَ[١] بعز ولا تأكله بذل، واعلم أن من عرف الله وثق بضمانه وكفالته، وأنه لا يكمل فهم العبد حتى يكون بما فى يد الله أوثق[٢] منه بما فى يد نفسه، وبضمان الحق أوثق منه بضمان الخلق، ويكفيك جهلاً أن لا تكون كذلك، ورأى بعضهم رجلاً يلازم الجامع ولا يخرج عنه، فعجب من ملازمته وفكر فى نفسه من أين يأكل؟ فقال له يوماً: من أين تأكل؟ فقال له ذلك العارف: إن لى صاحباً يهودياً وعدنى كل يوم رغيفين، فهو يأتينى بهما، فقال: أما الآن فنعم. فقال له ذلك العارف: يا مسكين وثقت لى بوعد يهودى وما وثقت لى بوعد الحق سبحانه وهو الصادق الوعد الذى لا يخلف الميعاد، وقد قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] فاستحيا ذلك الرجل وذهب. وعن آخر أنه صلى خلف الإمام أياماً، فقال له الإمام يوماً وتعجب من ملازمته وتركه الأسباب: من أين تأكل؟ فقال: قف حتى أعيد صلاتى

---

(١) ويحك: كلمة المقصود بها الدعاء بالرحمة.

(٢) وهذا على عكس ما نعيش فيه ليل نهار، نجد الواحد منا يتمسك بالعمل فى الوظائف الحكومية حرصاً منه على ما يسميه هو "تأمين مستقبله" بضمان تحصيل المعاش والتأمينات الاجتماعية والتأمين الصحى وكل ذلك مما لو لم يكتبه الله له لم يحصل له قطعاً، ولو أن أحدنا حرص على ما ينفعه وعمل فى هذه الأعمال ولكن مع الثقة أن كل هذا بيد الله والثقة بالله وحده فى هذا وليس فى مخلوقٍ أو مؤسسةٍ أو هيئةٍ أو حكومةٍ لكان خيراً لنا وأشد تثبيتاً، ولكن هذا يحتاج منا إلى دوام مراقبة القلب وإصلاح نياته وإصلاح العلاقة مع رب العالمين فى كل لحظة – فاللهم وفقنا لما فيه رضاك.

فإنى لا أصلى خلف من شك فى الله، والحكايات فى ذلك كثيرة، قيل لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه: لو أن إنساناً أُدْخل بيتاً وطُيِّن[١] ذلك البيت عليه من أين يأتيه رزقه؟ فقال: يأتيه رزقه من حيث يأتيه أجله. فانظر هذه الحجة ما أبهرها، وهذه البينة ما أظهرها، وقول الشيخ - رضى الله عنه: ومن التفكر والتدبير فى تحصيله، فالتفكر أن تستحضر فى نفسك أنه لابد لك من غذاء يقيم بنيتك، والتدبير هو أن تقول: من وجه كذا وكذا لا ولكن من وجه كذا وكذا، ويكثر ذلك ويتردد على القلب حتى لا تدرى إن كنت مصلياً ماذا صليت؟ أو تالياً ماذا تلوت؟ فتتكدر عليك الطاعة التى أنت فيها وتحرم أنوارها وتمنع أسرارها، فإذا ورد عليك ذلك فاهدم بناه بفأس الثقة، ودُكَّه[٢] بوجود اليقين، واعلم أن الله قد تولى تدبيرك من قبل أن تكون، وأنك إن أردت نصح نفسك فلا تدبر لها، فإن التدبير منك لها إضرارٌ بها إذ ذلك ما يوجب إحالتك عليك، ويمنع إمداد اللطف أن يصل إليك، والمؤمن لا يدعه الحق سبحانه لوجود التدبير ولا لمنازعة المقادير، فإن عَرَضَ ذلك عليه أو خَطَرَ فلا يثبت؛ لأن نور الإيمان لا يدعه لذلك **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الروم:٤٧]، **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** [الأنبياء:١٨]، وقول الشيخ - رضى الله عنه: ومن الشح والبخل بعد حصوله، فهذان من العوارض بعد الحصول وهما ينشآن عن ضعف اليقين وعدم الثقة، فحينئذ يكون الشح[٣] ويقع البخل، وقد ذم الحق سبحانه الشح والبخل كليهما فى كتابه فقال: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر:٩] فمفهومه أن صاحب الشح لا فلاح له أى: لا فوز له، والفلاح هو الفوز، وقال تعالى فى وصف المنافقين: **﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾** [الأحزاب:١٩] وقال

---

(١) أى: غطوه بالطين، واغلقوا نوافذه وأبوابه به.

(٢) الدَّك: هو الدَّق والضرب والكسر.

(٣) الشح: هو البخل مع الحرص. "مختار الصحاح".

تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥، ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨].

والشح يطلق على أقسام ثلاثة:

الأول: أن تبخل بما فى يديك أن تبذله[1] فى واجبات الله.

الثانى: أن تبخل به ولم يتعلق به الوجوب[2] عن عباد الله.

الثالث: أن تبخل بنفسك أن تبذلها لله.

فالبخل الأول:

هو أن يبخل فلا يؤتى الزكاة وقد خوطب بها، أو لا يقوم بحقٍ وقد تعين عليه من نفقات الأبوين فى فقرهما والأولاد فى فقرهم وصغرهم، وكنفقات الزوجات، وبالجملة فكل حقٍ أَوْجَبَ الله عليك القيام به فتخلفك عنه مما يطلق عليك لسان الذم وتستحق به العقوبة، وفى ذلك جاء قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، قال أهل العلم: الكنز هو الذى لا يؤدى زكاته، فإذا أديت فلا يكون كنزاً، معناه لا يدخل تحت هذا الوعيد ولا يطلق عليه لسان الذم.

القسم الثانى:

البخل بالبذل فيما لم يتعلق به الوجوب، كمن أخرج زكاة ماله ثم لم يبذل منه شيئاً بعد ذلك، وهذا وإن كان قد فعل ما أمره الله به من إخراج ما أوجب عليه فينبغى أن لا يقتصر عليه، فإن الاقتصار على الواجبات وترك نوافل الخيرات إنما هو حال الضعفاء؛ فلا ينبغى للمؤمن المَعْنِىِّ بصلاح شأنه مع الله أن يترك معاملة الله فيما لم يوجبه الله عليه، فإن كان كذلك كان حاله كمن يصلى الفرائض ولا يقوم

---

(١) البذل: العطاء والجود والكرم.

(٢) يعنى: كان ذلك الإنفاق من باب الصدقة والتطوع والمعروف.

بروانبها، ويكفيك أيها العبد قوله سبحانه فيما حكاه عنه رسوله: «**ما تقرب إلىَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً**» فقد بين سبحانه أن تكرار النوافل والقيام بها يوجب للعبد وجوب الحب من الله، والنوافل كلها لم يطلبك به لسان إيجاب من صلاة أو صدقة أو حج أو غير ذلك، مَثَلُ القائم بالفرائض من الصلوات المقتصر عليها، والقائم بها وبالنوافل معها، كالمخرج للزكاة المقتصر عليها والمخرج لها والمؤثر معها كعبدين لسيد جعل عليهما كل يوم خراجاً، على كل عبد درهمان، فأما العبد الواحد فإنه يأتى السيد بذلك ولا يزيده شيئاً ولا يهاديه ولا يوادده، وأما العبد الآخر فإنه يقوم لسيده كل يوم بما قام به صاحبه لكنه يشترى من الطُّرَف والفواكه ما يهدى لسيده زائداً عن إخراجه، فهذا العبد لا محالة أحظى عند السيد وأوفر نصيباً من الحب وأقرب إلى إقبال السيد؛ لأن العبد القائم بما خورج[1] عليه غير متودد للسيد، وإنما[2] أعطاه إشفاقاً من عقوبته، والعبد الذى أعطى لسيده ما خارجه عليه وهاداه بعد ذلك فقد سلك مسلك التودد للسيد والتعرض لحبه، فهو حرىٌّ أى يظفر بقربه، وإنما جعل الحق سبحانه الإيجاب على العباد علماً منه بما هم عليه من وجود الضعف وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل؛ فأوجب عليهم ما أوجب لأنه لو خيَّرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا به قائمين إلا قليل، وقليلٌ ما هم، فأوجب عليهم وجود طاعته، وفى التحقيق ما أوجب عليهم إلا دخول جنته، فساقهم إلى الجنة بسلاسل الإيجاب، عَجِبَ ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

---

(١) أى: طُلِبَ منه إخراجه.

(٢) فى المخطوط (وإما) والصحيح المثبت.

تنبيه:

اعلم – رحمك الله – أنَّا تلمحنا الواجبات فرأينا الحق سبحانه جعل فى كل ما أوجبه تطوعاً من جنسه فى أى الأنواع كان ليكون ذلك التطوع من ذلك الجنس جابراً لما عساه أن يقع من الخلل فى قيام العبد بالواجبات، وكذلك جاء فى الحديث أنه يُنظر فى مفروض صلاة العبد، فإن نقص منها شيئاً كُمِّل له من النوافل، فافهم – رحمك الله – هذا ولا تكن مقتصراً على ما فرض الله عليك، بل ليكن فيك ناهضة حبٍ توجب إكبابك على معاملة الله فيما لم يوجبه عليك، ولو كان العباد لا يجدون فى موازينهم إلا فعل الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنة مالا يحصره حاصر ولا يحرزه حارز، فسبحان الفاتح للعباد باب المعاملة والمهيئ لهم أسباب المواصلة، واعلم أن الحق سبحانه علم أن فى عباده ضعفاء وأقوياء فأوجب الواجبات وبيَّن المحرمات، فالضعفاء اقتصروا على القيام بما أوجب والترك لما حرم وليس فى قلوبهم من سلطان الحب ووجود الشغف ما يحملهم على المعاملة من غير إيجابٍ، فمثله كمثل العبد يعلم السيد منه أنه إن لم يخارجه لم يهد إليه شيئاً، فلذلك وقَّت سبحانه الأوراد ووظَّف وظائف العبودية وعرَّف ذلك بالمطامع والمغارب والزوال وصيرورته ظل كل شىء مثليه[1] فى الصلاة، وبالحَوْل فى الأموال النامية العَيْن والماشية، وبوقت حصول المنفعة فى الزرع ﴿وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام:١٤١]، وبعشر ذى الحجة فى الحج، وبشهر رمضان فى الصيام، فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيما سواها فسحة الحظوظ والسعى فى الأسباب، وأهل الله أهل الفهم عنه، فجعلوا الأوقات كلها وقتاً واحداً، والعمر كله نهجاً إلى الله قاصداً، فعلموا أن الوقت كله له فلم يجعلوا شيئاً منه لغيره؛ ولذلك قال الشيخ أبو الحسن – رضى الله عنه: عليك بوردٍ واحدٍ

---

(١) كقولنا: آخر وقت الظهر إذا صار ظل كل شىءٍ مثله غير (بعد) ظل الزوال، وأول وقت العصر الزيادة على ظل المثل، وآخرها إلى ظل المثلين.

وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى، أبت المحبة أن تستعمل محباً إلا فيما يوافق محبوبه. وعلموا أن الأنفاس أمانات الحق عندهم وودائعه لديهم، فعلموا أنهم مطالبون برعايتها فوجهوا هممهم لذلك(١)، وكما أن له الربوبية الدائمة كذلك حقوق ربوبيته عليك دائمة، فربوبيته غير مؤقتة بالأوقات فحقوق ربوبيته ينبغى أن تكون أيضاً كذلك، يقول الشيخ أبو الحسن: فإن لكل وقت سهماً فى العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، ولنحبس عنان المقال لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

القسم الثالث من أقسام الإيثار:

وهو الإيثار بالنفس، وهو أفضل الوجوه الثلاثة وإنما أُمِرَ بغيره لأجله، فمن آثر الله بما أوجبه عليه قد لا يؤثره بما فى يديه مما لم يوجبه عليه، فقد لا يؤثره بنفسه ولا يسخو ببذلها، فإن السخاء بالنفس والبذل لها من أخلاق الصديقين وشأن أهل اليقين الذين عرفوا الله فبذلوا له أنفسهم علماً منهم أن العبد لا يملك مع السيد شيئاً، وإذا كان الإيثار بالنفس هو أكمل الوجوه فيكون البخل بها أقبح الوجوه، فقد تبين من هذا قول الشيخ: "ومن الشح والبخل بعد حصوله" على طريق الإلماح لا الاستقصاء فإن الكتاب غير موضوع لهذا المعنى.

القسم الثالث من أقسام العوارض فى شأن الرزق:

فإنا ذكرنا أن العوارض التى تعرض فى شأن الرزق على ثلاثة أقسام: عوارض قبل الحصول، وعوارض فى حين الحصول، وقد تقدم ذكرها وكلام الشيخ فيها وبينا نحن ذلك، وعوارض تعرض بعد حصوله ونفاده من الأسف والندم عليه ودوام التطلع إليه، فينبغى لك أن تتطهر منه أيضاً، فاسمع قوله سبحانه: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد:٢٣]، وقول النبى ﷺ لما توفى ولدٌ لإحدى بناته قال ﷺ: «**أَعْلِمْها أن لله ما أخذ ولله ما أعطى**» ومن أسف على فقد شيء دون الله تعالى فقد نادى على نفسه بوجود الجهل وثبات القطعة؛ إذ لو

---

(١) أى: جعلوا أنفاسهم لا تخرج إلا فى الله ولله وبالله اعتماداً وتوكلاً.

وجد الله لم يفقد شيئاً دونه، فمن وجد الله فلا يجد شيئاً دونه حتى يكون لـه فاقـداً، وليعلم العبد أن ما فاته ليس برزق أو ما كان عنده ففقده لأنه لو كان رزقه ما ذهب عنه إلى غيره بل كان عاريةً عنده، أخذ العارية من أعارها، واسترجع الشىء من استودعه، وكان لبعضهم ابنة عم مسماة عليه من الصغر[1]، فلما كَبُرا حراماً[2] مُنع زواجه إياها، ثم تزوجت غيره، فجاء إليه بعض أهل الفهم وقال: يصـلح لـك أن تعتذر إلى هذا الزوج الذى تزوج ابنة عمك إذ كنت أنت المتطلع لزوجتـه إذ هـى زوجته فى الأزل، وكفى بالمؤمن محذراً من الندم على ما فات قول الله سـبحانه: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾** [الحج:١١] فقد ذم الله سبحانه من يسـكن للأشياء فى حين وجدها، ألا تراه كيف قال: **﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ﴾** أى: اطمأن بذلك الخير، ولو فهم لما اطمأن بشىءٍ دون الله تعالى، وكانت طمأنينته بالله وحده، وكذلك من يحزن عليها عند فقدها لقوله تعالى: **﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـةٌ انقَلَـبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾** والفتنة فقد ذلك المشتهى الذى كان إليه ساكناً **﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ﴾** أى: أُدْهِشَ عقله وَذَهَلَتْ نفسه وغَفَلَ قلبه، وما ذاك إلا لعدم معرفته بالله تعالى، ولو عرف الله أغناه وجوده عن وجود كل موجودٍ، واستغنى به عن كل مفقود، فمن فقد الله لم يجد شيئاً، وكيف يفقد شيئاً من يجد من بيده ملكوت كل شىءٍ؟ وكيف يفقـد شيئاً من وجد الموجد لكل شىءٍ؟ وكيف يفقد شيئاً من وجد الظاهر فى كل شـىءٍ؟ فما سوى الله عند أهل المعرفة لا يتصف بوجودٍ ولا بفقدٍ؛ إذ لا يوجد غيره معـه لثبوت أحديته، ولا فقد لغيره؛ لأنه لا يفقد إلا ما وجد[3]، ولو انكشف حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان، وإذ قـد

(١) أى قيل: إنها تكون زوجةً له فى المستقبل.

(٢) أى: كبرا ونشأ ما يوجب تحريمها عليه من رضاعٍ فى الصغر.

(٣) وغيره كالعدم عنده لا يوجد لأنه لا يرى موجوداً على الحقيقة إلا الله تعالى.

فهمت هذا فينبغى لك أيها العبد أن لا تأسى على فقد شىء، وأن لا تركن لوجود شىء، فإن وجد شيئاً فركن إليه أو فقد شيئاً فحزن عليه فقد أثبت عبوديته لهذلك الشىء الذى أفرحه وجده وأحزنه فقده، فافهم هنا قوله عليه السلام: «**تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة**(١)**، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**(٢)» فلا تُحكِّمْ فى قلبك أيها المؤمن شيئاً إلا حب الله ووده؛ فإنك أشرف من أن تكون عبداً لغيره، فقد جعلك المولى كريماً فلا تكن عبداً لئيماً، وقد أبى لأهل الفهم عن الله فهمهم أن يركنوا لوجدٍ أو يتطلعوا لفقدٍ حفظاً لعبوديتهم له وتصحيحاً لحريتهم مما سواه، وسمعت شيخنا أبا العباس – رضى الله عنه – يقول: الكائن فى الحال على قسمين: عبد هو فى الحال(٣) بالحال، وعبد هو فى الحال بالمحوِّل، فالذى هو فى الحال بالحال: هو عبد الحال، وهو الذى يفرح لها إذا وجدها، ويحزن عليها إذا فقدها، وعبد هو فى الحال بالمحوِّل: فذاك عبد الله لا عبد الحال، وهو الذى لا يأسى عليها إذا فقدها ولا يفرح بها إذا وجدها فقوله سبحانه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**﴾ [الحج:١١] أى: على وجهة واحدة، فإن زالت زالت طاعته وانفصلت موافقته، ولو فهم عنا لعبدنا على كل حالةٍ وفى كل وجهةٍ، كما أنه ربك فى كل حالٍ كذلك فكن عبداً له فى جميع الأحوال، وقوله سبحانه: ﴿**فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ**﴾ أى: إن أصابه خير مما يلائم نفسه هو فى نظره خير وقد يكون شراً فى نفس الأمر، ﴿**وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ**﴾ أى: فقد ذلك الخير الذى كان فيه مطمئناً وسماه فتنة؛ لأن فى الفقد اختبار إيمان المؤمنين وفى الفقد يظهر أحوال الرجال، فكم ظَانٍ أن غناه بالله وإنما غناه بوجود أسبابه ومعدادت أكسابه، وكم ظَانٍ أنسه بربه وإنما أنسه بحاله، دليل ذلك فقدانه لأنسه عند فقدان حاله، فلو كان أنسه بربه

---

(١) الخميصة: كساءٌ أسود مربَّع له علَمان (رَسْمَان). انظر "القاموس المحيط".

(٢) أى: إذا أصبته شوكة لم يستخرجها، وهذا فيه زجر وتنفير وتحذير ممن هذا شأنه.

(٣) الحال: ما يرد على القلب أو يحل به من كربٍ أو حزنٍ أو بسطٍ أو قبضٍ، وتسمى "الوارد" أيضاً. "المعجم الصوفى" د/ عبد المنعم الحفنى.

لدام أنسه بدوامه ولبقى ببقائه، وقوله سبحانه: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ خسر الــدنيا بفقدان ما أراد منها، وفقد الآخرة لأنه لم يعمل لها، فقد ما طلبه هو فما طلبنا حتى نكون له، فافهم.

فصل

نذكر فيه أمثلة التدبير مع الله تعالى والمدبرين معه وأمثلة الرزق وضمان الحق له، فإن بالمثال يتبين الحال: مَثَلُ المدبر مع الله كمن بنى بناءً على شاطئ البحر، كلما اجتهد فى بنائه كَرَّتْ عليه الأمواج فيتداعى فى جميع أنحائه، كذلك المدبر مع الله يبنى مبانى التدبير ويهدمها واردات المقادير، لأجل ذلك قيل: يدبر المدبر والقضاء يضحك.

قال الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه * إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم[١]

مثال آخر:

مثل التدبير مع الله كرجل جاء إلى رمال متراكمة فوضع عليها بناءه[٢] فجاءت العواصف فنسفت الرمال فهدم ما بنى، كما قيل:

وعهودهم بالرمل قد درست * ولذاك لا يبنى على الرمل[٣]

مثال آخر:

مثل المدبر مع الله كمثل ولدٍ سافر مع والده فساروا ليلاً، والأب لإشفاقه على الولد يراقبه من حيث لا يراه الولد، والولد لا يرى الوالد للظلمة الحائلة بينهما، والولد مهموم بأمر نفسه كيف يفعل فى شأنه؟ فإذا طلع القمر ورأى قرب الأب منه سكن جأشه وهدأ روعه؛ لأنه رأى قرب أبيه منه فاغتنى بتدبيره له عن تدبيره لنفسه، كذلك المدبر مع الله لنفسه إنما دبر لأنه فى ليل القطعة فلم يشهد قرب الله

---

(١) البيت من بحر الطويل.

(٢) فى المخطوط (بناؤه) والصحيح المثبت.

(٣) البيت من بحر الكامل.

فلو طلع قمر التوحيد أو شمس المعرفة لرأى قرب الحق سبحانه فاستحى أن يدبر معه، واغتنى بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه.

مثال آخر:

التدبير شجرة تسقى بماء سوء الظن بالله وثمرتها القطعة عن الله؛ إذ لو حسن العبد ظنه بربه لماتت شجرة التدبير من قلبه لانقطاع غذائها، وإنما كان ثمرتها القطعة عن الله لأن من دبر لنفسه فقد اكتفى بعقله ورضى بتدبيره واحتال على وجوده، فعقوبته أن يحال عليه وأن يمنع واردات المنن أن تصل إليه.

مثال آخر:

مثل المدبر مع الله كعبدٍ أرسله السيد إلى بلدٍ ليصنع له بها قماشاً، فدخل العبد تلك البلدة فقال: أين أسكن؟ ومَن أتزوج؟ فاشتغل بذلك وصرف همته لما هنالك وعطل ما أمره به السيد حتى دعاه السيد إليه، فجزاؤه من السيد أن جازاه القطعة ووجود الحجبة لاشتغاله بأمر نفسه عن حق سيده، كذلك أنت أيها المؤمن أخرجك الحق إلى هذه الدار وأمرك فيها بخدمته وقام لك بوجود التدبير منه[1]، فإن اشتغلت بتدبير نفسك عن حق سيدك فقد عدلت عن سبيل الهدى وسلكت مسالك الردى.

مثال آخر:

مثل المدبر مع الله والذى لا يدبر كعبدين للملك، أما أحدهما فمشتغل بأوامر سيده لا يلتفت إلى ملبسٍ ولا مأكلٍ بل إنما همته خدمة السيد، فأغفله ذلك عن التفرغ لحظوظ نفسه، وعبد آخر كيفما طلبه سيده وجده فى غسل ثيابه وسياسة مركوبه وتحسين زيِّه، فالعبد الأول أولى بإقبال السيد من العبد الثانى المشتغل بحظوظ نفسه ومهماتها عن حقوق سيده، والعبد إنما اشتُرِىَ للسيد لا لنفسه، كذلك

---

(١) وفى الحديث القدسى: «ابن آدم خلقتك لأجلى، وخلقت الأشياء كلها لأجلك، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له» الحديث بمعناه.

العبد البصير لا تراه إلا مشغولا بحقوق الله ومراقبة أوامره عن محابِّ نفسه ومهماتها، فلما كان كذلك قام له الحق سبحانه بكل أمره وتوجه إليه بجزيل عطائه لصدقه فى توكله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] والغافل ليس كذلك، لا تجده إلا فى تحصيل أسباب دنياه، وفى الأشياء التى توصله إلى هواه قائماً بوجود التدبير من نفسه لنفسه محالاً عليها مقطوعاً بها[١] عن وجود حسن الثقة وصدق التوكل.

مثال آخر:

مثال التدبير مع الله كالظل المنبسط فى عدم استواء الشمس، فإذا استوت الشمس فنى ذلك الظل المنبسط حتى لا يبقى منه إلا بقية رسمٍ لا تمحوه المقابلة، كذلك شمس المعرفة إذا قابلت القلوب محت منها وجود التدبير إلا بقاء رسمٍ من تدبير العبد أُبقِى فيه لتجرى عليه التكاليف.

مثال آخر:

مثل المدبر مع الله لنفسه كرجل باع داراً أو عبداً ثم بعد المبايعة وإثباتها جاء البائع للمشترى فقال له: لا تبن فيها شيئاً أو اهدم منها بيت كذا أو افعل فيها كذا، أو جاء البائع ليفعل ذلك فيقال له: أنت قد بعت وليس لك بعد البيع تصرف فيما بعته إذ ليس بعد المبايعة منازعة، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة:١١١] فعلى المؤمن أن يسلم نفسه لله وما انتسب إليها لأنه أنشأها ولأنه اشتراها، ومن التسليم ترك التدبير لما أنت له مسلِّم كما بيناه. وأما الرزق فمثال رزق العبد فى هذه الدار كمثل سيدٍ قال لعبده: الزم هذه الدار قائماً فيما بخدمة كذا، فلم يكن السيد يأمره بذلك إلا وهو يطعمه ويكسوه ويقوم له بوجود الكفاية ولا يهمله من الرعاية، كذلك العبد أمره الله فى الدنيا بالطاعة والموافقة وضمن له وجود القسمة؛ فليقم العبد بخدمته، فإن السيد قائم عليه بمنته،

---

(١) فى المخطوط (به) والمثبت الصحيح.

قال الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢]، وقد تقدم بيانه.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله فى هذه الدنيا كالطفل مع أمه ولم تكن الأم لتدع ولدها من كفالتها ولا أن تخرجه عن رعايتها، كذلك المؤمن مع الله قائم له الحق بحسن الكفالة فهو سائق إليه المنن ودافع عنه المحن، رأى رسول الله ﷺ امرأة معها ولدها فقال: «**أترون هذه طارحةً ولدَها فى النار؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال ﷺ: «**الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها**».

مثال آخر:

مثل العبد فى الدنيا كمثل عبد قال له سيده: اذهب إلى أرض كذا وكذا وأحكم أمرك لأن[1] تسافر من تلك الأرض فى برية كذا، وخذ أُهْبتك وعُدَّتك، فإذا أذن له السيد فى ذلك فمعلوم أنه قد أباح له أن يأكل ما يستعين به على إقامة بنيته ليسعى فى طلب العدة وليقوم بوجود الأهبة، كذلك العبد أوجده الحق سبحانه فى هذه الدار وأمره أن يتزود منها لمعاده فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧]، فمعلوم أنه إذا أمره بالزاد للآخرة فقد أباح له أن يأخذ من الدنيا ما يستعين به على تزوده واستعداده وتأهبه لمعاده.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل سيدٍ له بستان أمر عبده أن يكون فيه غارساً وزارعاً وقائماً بمصلحته، فإن كان ذلك العبد حين أُمر بذلك قام بما طلبه السيد منه لا يخرج عنه فليس للسيد أن[2] يلومه ولا منع[3] إياه من أكله من ذلك البستان، فإنه إذا أكل

---

(١) فى المخطوط (لا) والصحيح (لأن) أى: حتى أن تسافر منها إلى برية كذا.

(٢) لفظة (أن) ساقطة من المخطوط.

(٣) فى المخطوط (مانع) والمثبت الصحيح.

منه عمل فيه لكن على العبد أن يأكل ما يستعين به على الخدمة، وأن لا يأكل أكل التمتع والتشهى.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل ولدٍ غرس غرساً كثيراً، وبنى رَبْعاً[1] كبيراً فقيل له: لمن فعلت هذا؟ فقال: لولد عساه أن يحدث لى، فهيأ للولد ما يحتاج إليه قبل كونه حباً منه فيه، أفترى إذا أعد له الأب قبل وجوده أيمنعه إياه بعد وجوده؟ كذلك العبد مع الله هيأ له الحق سبحانه المنة من قبل أن يدخله فى هذه الدار لأن المنة سابقة لوجودك إن فهمت، ألا ترى أنه سبق عطاؤه إياك وجودك ومنته عليك قبل ظهورك إذ هو أعطى فى الأزل قبل أن يكون العبد ويكون منه عملٌ، فما قسمه لك فى الأزل وادخره لك ليس بمانعه عنك، أيهيئ لك قبل الوجود ويمنعك لما وُجِدْت؟.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل أجيرٍ أتى به ملك إلى داره وأمره بأن يعمل له عملاً، فما كان الملك ليأتى بالأجير ويستخدمه فى هذه الدار ويتركه من غير تغذيةٍ، إذ هو أكرم من ذلك، كذلك العبد مع الله، فالدنيا دار الله، والأجير هو أنت، والعمل هو الطاعة، والأجرة هى الجنة، ولم يكن ليأمرك بالعمل ولا يسوق لك ما به تستعين عليه.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل ضيف نزل على ملكٍ كريمٍ فى داره فحقٌّ على ذلك الضيف أن لا يهتم بمأكل ولا مشرب، لأنه إن فعل ذلك كان تهمةً للملك وسوء ظن منه به، وقد تقدم ذلك من قول الشيخ أبى مدين – رضى الله عنه: كذلك الدنيا دار الله والعباد فيها ضيوفه، ولم يكن سبحانه ليأمرنا بالضيافة على لسان رسوله ﷺ

---

(١) الرَّبْع: الدار بعينها حيث كانت، وجمعها: رباع. "مختار الصحاح".

ويكون لها تاركاً، فالمهتم فيها بمأكل ومشرب ممقوت فى نظر الملك؛ إذ لولا شكه فى الله ما كان يهتم بشأنه.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل عبد أمره الملك أن يقيم فى أرض كـذا ويحـارب العدو الذى هنالك وأن يبذل عزمه فى مجاهدته وأن يدوم على محاربته، فمعلوم أنه إذا أمره الملك بذلك أنه يتيح له أن يأكل من[١] تلك البلدة ومخازنها بالأمانة ليستعين بذلك على محاربة العدو الذى أمره الملك بمحاربته[٢]، كذلك العباد أمـرهم الحـق سبحانه بمحاربة الشيطان بقوله: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ [الحج:٧٨]، وقال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر:٦] فلما أمرهم بمحاربته أذن لهم أن يتناولوا من منته ما يستعينون به على محاربة الشيطان؛ إذ لـو تركـت المأكـل والمشرب لم يمكنك أن تقوم بطاعته ولا أن تنهض بخدمته، فقد تضمَّن أمر الملـك بالمجاهدة إباحة تناول ما هو منسوب للملك مما هو معد لك على طريـق الأمانـة محفوفاً بالصيانة[٣].

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كشجرة غرسها غارسها طالباً نموها ونِتَاجها، فهل علمت الشجرة – إن يكن لها عِلْمٌ – أو علمنا ذلك فيها أنه ما كان ليغرسها ويمنعها السقيا؟ كيف وهو حريص على نتاجها مريد لنمائها؟ كذلك أنت أيهـا العبـد شـجرة الله غارسك وهو ساقيك فى كل وقت قائم لك بوجود التغذية، فـلا تتهمـه أن يغـرس شجرة وجودك ثم يمنعك السقيا بعد الغرس، فإنه ليس بفاعل.

---

(١) لفظة غير واضحة فى هذا الموضع من المخطوط.

(٢) فإن الوسائل تأخذ حكم المقاصد.

(٣) فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل ملكٍ له عبد بنى داراً وحسنها وبهَّجها وتولى غراسها وكمَّل المشتهيات فيها فى غير الموطن الذى العبيد فيه وهو يريد أن ينقلهم إليها، أترى إذا كان هذا عنايته بهم فما ادخر لهم عنده وهيأ لهم بعد الرحلة؟ أيمنعهم ههنا أن يتناولوا من مننه وفضلات طعامه وهو قد هيأ لهم الأمر العظيم والفضل الجسيم؟ كذلك العباد مع الله جعلهم فى الدنيا، وهيأ لهم الجنة فما هيأ لهم الآخرة وهو يريد أن يمنعهم من الدنيا ما يقوم به وجودهم، لذلك قال: ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ [سبأ:١٥]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة:١٧٢]، فإذا أخر لك الباقى ومَنَّ عليك به فلا يمنعك الفانى، فإن منعك منه فإنما منعك ما لم يقسمه لك، وما لم يقسمه لك فليس لك، ويكون ذلك المنع منه لك نظراً علِمَ أن فيه مصلحة وجودك ونظام أمرك كما يقطع توالى الماء عن الشجرة لئلا يتلفها دوام السقيا.

مثال آخر:

مثل المهتم بأمر دنياه الغافل عن التزود لأخراه كمثل إنسان هاجمه سبع وقد كاد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب ذلك الذباب ودفعه عن التحرز من الأسد، فهذا عبد أحمق فاقد وجود العقل، ولو كان بالعقل متصفاً لشغله أمر الأسد وصَوْلته وهجومه عليه عن الفكرة فى الذباب والاشتغال به، كذلك المهتم بأمر دنياه والغافل عن التزود لأخراه دل ذلك منه على وجود حمقه؛ إذ لو كان فَهِماً عاقلاً لتأهب للدار الآخرة التى هو[1] مسئول عنها وموقوف فيها ولا يشتغل بالاهتمام بأمر الرزق؛ فإن الاهتمام به بالنسبة إلى الآخرة كنسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه.

---

(١) فى المخطوط (هى) والصحيح (هو).

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كمثل الطفل مع أبيه لا يعول مع الأب هماً ولا يخشى غرماً[١] لعلمه أن الأب قائم له بوجود الكفالة، فطيبت الثقة عيشه وأزال الاعتماد على أبيه غمَّه، كذلك العبد المؤمن مع الله لا يعول الهموم ولا تَرِدُ بساحة قلبه الغموم من شأن الرزق لعلمه بأن الحق سبحانه لا يدعه، وعن فضله لا يقطعه، ومن إحسانه وَجُودِهِ لا يمنعه.

مثال آخر:

مثل العبد مع الله كعبد له سيد غنى متصف بالثروة والإحسان إلى عبيده، وغير معروف بالمنع، موصوف بوجود العطاء، فالعبد بفضله واثق ولإحسانه رامق[٢]، علم من سيده الغنى فأخرجه ذلك من وجود العناء، وهذا بعينه كان سبب توبة شقيق البلخى[٣] قال: عبرت فى زمن مجاعة فوجدت غلاماً منبسطاً منشرحاً ليس عنده مما الناس فيه علم فقلت له: يا فتى أما تعلم ما الناس فيه؟ فقال: وما أبالى ولمولاى قِرْبَةٌ خالصة يدخل إلينا منها كل يوم ما نحتاج إليه، فقلت فى نفسى: إن كان لسيد هذا قربة خالصة فمولاى له خزائن السموات والأرض، فأنا أولى بالثقة منه به من هذا بسيده، وهو كان سبب انتباهى.

---

(١) هكذا فى الأصل، أى: لا يخشى إنفاقاً من ماله، والأحسن (عُدْماً) كما هو فى المطبوع، ومعناه: لا يخشى انعداماً لما يناله من جهة أبيه.

(٢) أى: ناظر متطلع متأهب لوصول عطائه له.

(٣) سيدى شقيق البلخى: أبو على شقيق بن إبراهيم البلخى - رضى الله عنه - كان من مشايخ خراسان، له لسان فى التوكل حسن الكلام، وقيل: إنه أول من تكلم فى علم الأحوال بكورة خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم، وأخذ عنه طريقته، وهو أستاذ حاتم الأصم - رضى الله عنهم - وكان يقول: الزاهد هو الذى يقيم زهده بفعله، والمتزهد هو الذى يقيم زهده بلسانه. وكان يقول: اتق الأغنياء؛ فإنك متى عقدت قلبك معهم وطمعك فيهم فقد اتخذتهم أرباباً من دون الله. انظر "الطبقات الكبرى" سيدى الشعرانى (جـ١ صـ١٣١: صـ١٣٢).

مثال العبد المتسبب المرزوق فى وجود السبب كمثل عبد قال له السيد: الزم أنت خدمتى وأنا أسوق لك منتى. مثال العبد النافذ إلى الله فى الأسباب بمثابة الرجل يقعد تحت الميزاب[١] إذا أمطرت السماء، فهو يشكر الله وحده، ولم يلزم من قعوده تحت الميزاب أن يضيف المطر له، بل علم أنه إن لم يكن فيه لم يوجدْ هو شـيئاً، كذلك الأسباب ميازيب[٢] المنن، فمن دخل فى الأسباب وهمته متعلقة بالله لا بها لم يضره ذلك ولم يخش عليه القطعة فيما هنالك، ومثل الواقف مع الأسباب الغافل عن وليها كمثل البهيمة يعبر عليها مالكها فلا يلتفت إليه وهو المالـك لهـا والمعطـى لسايسها ما ينفق عليها، فإذا عبر سايسها بصبصت بعينها وتشوفت[٣] إليه لاعتيادها منه أنه يتولى طعمتها، فالغافل كذلك؛ لأنه إذا أجرى عليه الإحسان علـى أيـدى الخلق شهد ذلك منهم ولم يخرجه عنهم، فهو كالبهيمة بل البهيمة أحسن حالاً منـه ﴿أُولَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

مثال آخر:

مثل الواقف مع الأسباب والنافذ إليها كمثل رجلين دخلا حمامـاً، أحـدهما وافر العقل، والآخر البلاهة والخَرَق[٤] غالب عليه، فإذا توقف الماء فأما العاقل فهو يعلم أن له مصرفاً من ورائه يصرفه ومُجْرِياً يجريه فرجع إليه ليرسل له منه مـا كان قطعه أو يفعل ما يشاء، وأما الآخر فإنه يأتى إلى الأنبـوب، أيتهـا الأنبـوب اسكبى[٥] لنا ماء، مالك قطعت ماءك؟ فيقال له: إنه لأخرق، وهل الأنبوب يسـمع شيئاً أو يفعل شيئاً؟ إنما هى محل ومجرى يظهر فيها ما أجرى فيها.

---

(١) ما يسيل منه الماء.

(٢) هكذا بالمخطوط، وفى "القاموس" أن جمعه: مآزيب.

(٣) تشوفت: بالفاء.

(٤) الخَرَق: الحماقة.

(٥) فى المخطوط (استلبى) والمثبت الصحيح.

مثال آخر:

مثل العبد المدخر كعبدٍ للملك جعله فى بستانه ليقوم بإصلاح شأنه، فللعبد أن يأكل من ثمرات ذلك البستان ما يتقوى به على الغراس والزراعة فيه، وليس له أن يدخر لأن ثمرة ذلك البستان دائمة وسيده غنى، فإن ادخر بغير إذن سيده إمساكاً على نفسه وتهمة لسيده فقد خان، كذلك العبد الذى لا يدخر لعبدٍ هو فى بستان السيد أو فى داره علم أنه لا ينساه سيده ولا يهمله، بل يبدله خيراً ويوصله، فاغتنى بسيده عن الادخار معه، وبغناه عن أن يحتاج إلى شىء دونه، فهذا العبد حرىٌ أن يواجه بالإقبال وأن يسعف بالنوال.

مثال المدخر بالأمانة كعبدٍ للملك لا يرى أن له مع سيده شيئاً لا يعتمد ادخار ما فى يديه ولا بذله بل لا يختار إلا ما اختاره السيد له، فإذا فهم هذا العبد أن الإمساك مراد سيده أمسك لسيده لا لنفسه حتى يتحيَّن موضع صرفه فيكون له صارفاً حين يفهم عن سيده إرادة صرفه، فهذا بإمساكه غير ملومٍ لأنه أمسك لسيده لا لنفسه، كذلك أهل المعرفة بالله إن بذلوا فلله وإن أمسكوا فله، يبتغون ما فيه رضاه ولا يريدون ببذلهم وإمساكهم إلا إياه، فهم خزان أمناء وعبيد كبراء وأحرار كرماء، قد حررهم الحق من رق الآثار فلم يميلوا إليها بحبٍّ ولا أقبلوا عليها بود، منعهم من ذلك ما أسكن فى قلوبهم من حب الله ووده وما امتلأت به صدورهم من عظمته ووده ومجده، وليس الممسك لله بدون الباذل له، فصارت الأشياء فى أيديهم كهى فى خزائن الله من قبل أن تصل إليهم علماً منهم أن الله يملكهم ويملك ما ملكهم، ومَنْ لم يحسن الإمساك لله لم يحسن البذل له، فافهم.

فصل

نذكر فيه مناجاة الحق لعبده على ألسنة هواتف الحقائق فى شأن الرزق والتدبير:

أيها العبد، ألق سمعك وأنت شهيد يأتيك منى المزيد، وأصغِ بسمع قلبك فأنا عنك لست بعيد.

أيها العبد، كنتُ بتدبيرى لك من قبل أن تكون بنفسك، فكن لنفسك بأن لا تكون لها، وتوليتُ رعايتها قبل ظهورك وأنا الآن على الرعاية لها.

أيها العبد، أنا المنفرد بالخلق والتصوير وأنا المنفرد بالحكم والتدبير، لم تشركنى فى خلقى وتصويرى فلا تشاركنى فى حكمى وتدبيرى، وأنا المدبر لملكى وليس لى فيه ظهير وأنا المنفرد بحكمى ولا أحتاج إلى وزير.

أيها العبد، من كان تدبيره لك قبل الإيجاد فلا تنازعه فى المراد، ومن عَوَّدك حسن النظر منه فلا تقابله بالعناد.

أيها العبد، عَوَّدْتُك حسن النظر منى فَعَوِّدْنى إسقاط التدبير منك معى.

أيها العبد، أشكًا بعد وجود التجربة وحيرةً بعد وجود البيان وضلالاً[١] بعد وضوح الهدى؟ أما يجمعك[٢] علىَّ علمك بأنه لا مدبر لك غيرى؟ أما يجنّبك من المنازعة لى ما سبق من وجود خيرى.

---

(١) أى: أتشك شكاً، وتحتار حيرةً، وتضل ضلالاً؟

(٢) فى المخطوط (يحبلك) وهو تصحيف من الناسخ، والمثبت أقرب للمعنى المراد.

أيها العبد، انظر نسبة وجودك من أكوانى ترى أنك متلاشٍ فى الفـانى[١]، فما ظنك بما ليس بفانٍ؟ وقد سلمت لى قيامى بمملكتى، وأنت من مملكتى فلا تنازع ربوبيتى ولا تضاد بتدبيرك مع وجود إلهيتى.

أيها العبد، أما يكفيك أنى أكفيك؟ أما يوجب سكونك لى سـوابق عوائـدى فيك؟

أيها العبد، متى أحوجتك إليك حتى تحتال[٢] عليك؟ ومتى وكلت شيئاً مـن مملكتى لغيرى حتى أكل ذلك إليك؟

أيها العبد، أعددت لك جودى من قبل أن أظهـرك لوجـودى، وظهـرت بقدرتى فى كل شىء فكيف يمكنك جحودى؟

أيها العبد، متى خاب من كنت له مدبراً؟ ومتى خذل من كنت له منتصراً؟

أيها العبد، لتشغلك خدمتى عن طلب قسمتى، وليمنعك حسن الظن بى عن اتهام ربوبيتى.

أيها العبد، لا ينبغى أن تتهم محسناً، ولا أن تنازع مقتدراً، ولا أن تضـادد قهاراً، ولا أن تعترض على حكيم، ولا أن يُعَالَ هُم مع لطيف.

أيها العبد، لقد فاز بالنُّجْح من خرج عن الإرادة معى، ولقد دُلَّ على يسـر الأمر من احتال علىَّ، ولقد ظفر بكنز الغنى من صدق فى الفاقة إلىَّ، ولقد استوجب النصر منى عبدٌ إذا تحرك تحرك بى، ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسـك بسببى، إنى آليت على نفسى أن أجازى أهل التدبير بوجود التكدير[٣]، وأن أهدم ما

---

(١) فأين الواحد منا من سماءٍ واحدةٍ من سماواته، وأرض من أرضه؟ وكيف الحال وقد علمنا أن السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية كحلقة فى فلاةٍ (صحراء)...؟ فماذا يمثـل الواحـد منـا بالنسبة إلى هذا الكون الفسيح؟.

(٢) أى: تتحول إلى نفسك وتجعلها مدبرةً مفكرةً فى الرزق وغيره من الأمور.

(٣) التكدير: أخو التعكير فى الفكر.

شيدوا وأحل ما عقدوا، وأن أكلهم إليهم[١]، وأنا أحيلهم عليهم ممنوعين من رَوْحِ الرضا ونعيم التفويض، فلو إذ قد فهموا عنى لاقتنعوا بتدبيرى عن تدبيرهم لأنفسهم، وبرعايتى لهم عن رعايتهم إياها، فإذاً كنت أسلك بهم سبيل الرضا، وأنهج بهم منهج الهدى، وأسعى بهم فى طريق بيضاء، وأجعل عنايتى لهم واقية من كل ما يخافونه وجالبة لهم جميع ما يرجونه وذلك علىَّ يسير.

أيها العبد، نريد منك أن تريدنا ولا تريد معنا، ونختار لك أن تختارنا ولا تختار معنا، ونرضى لك أن ترضانا ولا نرضى لك أن ترضى سوانا.

أيها العبد، إن قضيت لك فلإرادتى ظهور فضلى عليك، وإن قضيت عليك فلأنى أريد أن أورد فى قضائى أسرار لطفى إليك.

أيها العبد، لا تجعل جزاء ما أظهرت فيك من نعمتى وجود منازعتى ولا عوض ما أحسنت لك بالعقل الذى مُيِّزْتَ به وجود مضادَّتى.

أيها العبد، كما سلمت لى بتدبير أرضى وسمائى وانفرادى فيهما بحكمى وقضائى سلِّم وجودك لى فإنك لى، ولا تدبر معى فإنك معى، واتخذنى وكيلاً وَثِقْ بى كفيلاً أعطيك عطاءً جزيلاً وأهبك فخراً جليلاً.

أيها العبد، إنى حكمت فى أزلى أنه لا يجتمع فى قلب عبدى ضياء التسليم لى وظلمة المنازعة معى، فمتى كان واحد منهما لم يكن الآخر معه، فاختر لنفسك، ويحك إنا أجللنا قدرك أن نشغلك بأمر نفسك، فلا تصغر قدرك يا من رفعناه، فلا تذلن بحوالتك على غيرك يا من أعززناه، ويحك أنت أجل عندنا من أن تشتغل بغيرنا، لحضرتى خلقتك وإليها خطبتك وبجواذب عنايتى جذبتك، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك، وإن اتبعت هواها طردتك، وإن خرجت عنها قربتك، وإن توددت لى بإعراضك عما سواى أحببتك.

---

(١) وفى الدعاء: "يا حى يا قيوم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عينٍ ولا أقل من ذلك".

أيها العبد، أما كفاك لو اكتفيتَ وهداك لو اهتديتَ أنى أنا الذى خلقتُ فسويتُ وتصدقتُ فأعطيتُ؟ أما يمنعك ذلك من منازعتى فيما قضيت ومعارضتى فيما أتيت؟

أيها العبد، ما آمن بى من نازعنى، ولا وحدنى من دبر معى، ولا رضى بى من شكا ما أنزلته به إلى غيرى، ولا اختارنى من اختار معى، وما امتثل أمرى من لم يستسلم لقهرى، ولا عرفنى من لم يفوض أمره إلىَّ، ولقد جهلنى من لم يتوكل علىَّ.

أيها العبد، يكفيك من الجهل أن تسكن لما فى يديك ولا تسكن لما فى يدى، وأن أختار لك أن تختارنى فتختار علىَّ، ويحك لا تجتمع عبوديةٌ واختيار، ولا ظلمٌ وأنوار، ولا توجهك لى وتوجهك للآثار، فإما أنا لك أو أنت لنفسك، فاختر على بيان ولا تستبدل الهدى بالخسران.

أيها العبد، لو طلبت منى التدبير لنفسك جهلتَ فكيف إذا دبرت لها؟ ولو اخترت معى ما أنصفت فكيف إذا اخترت علىَّ؟

أيها العبد، لو أذنت لك أن تدبر كان يجب عليك أن تستحيى من أن تدبر، وكيف وقد أمرتك أن لا تدبر يا مهموماً بنفسه؟ لو ألقيتها إلينا لاسترحت، ويحك أعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية وليس يقوى لها ضعف البشرية، ويحك أنت محمول فلا تكن حاملاً، أردنا راحتك فلا تكن متعباً لنفسك. مَنْ دَبَّرَكَ فى ظلمات الأحشاء وأعطاك بعد الوجود ما تشاء لا ينبغى لك أن تنازعه فيما يشاء.

أيها العبد، أمرتك بخدمتى وضمنت لك قسمتى فأهلمتَ ما أمرتُ وشككتَ فيما ضمنتُ، ولم أكتف لك بالضمان حتى أقسمتُ وما اكتفيتُ بالقسم حتى مَثَّلْتُ وخاطبتُ عباداً يفهمون فقلت: **﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾** [الذاريات:٢٢، ٢٣] ولقد اكتفى بوصفى العارفون واحتال على كرمى الموقنون، فلو لم يكن وعدى لعلموا أنى لا أقطع عنهم

واردات رِفْدِى[١]، ولو لم يكن ضمانى لوثقوا بوجود إحسانى، وقد رزقت من غفل عنى وعصانى فكيف لا أرزق من أطاعنى ورعانى؟ ويحك الغارس للشجرة هو ساقيها والمُمِدُّ للخليقة هو باريها ويكفيها أنه كافيها ومكافيها[٢]، منى كان الإيجاد وعلىَّ دوام الإمداد، منى كان الخلق وعلىَّ دوام الرزق، ويحك هل تدعو لدارك إلا من تريد أن تطعمه؟ وهل تنسب لنفسك إلا من تحب أن تكرمه؟

أيها العبد، اجعل همك بى مكان همك برزقى؛ فإن ما حملته عنك فلا تتعبنَّ به، وما حملته لك فكن أنت به، أندخلك دارى ونمنعك إبرارى؟ أنبرزك لكونى ونمنعك جودى؟ أأطالبك بحقى وأمنعك وجود رزقى؟ أأقتضى منك خدمتى ولا أقضى لك بقسمتى؟ لك قسمة عندى لا نُبقِى لك عندى[٣]، لك هيأت منتى وفيك أظهرت رحمتى، وما قنعت لك بالدنيا حتى ادخرت لك جنتى، وما اكتفيت لك بذلك حتى أتحفتك برؤيتى، فإذا كانت هكذا أفعالى فكيف تشك فى أفضالى؟

أيها العبد، لابد لنعمتى من آخذٍ ولفضلى من قابلٍ وأنا الغنى عن الانتفاع بالمنافع لما دَلَّ عليه الدليل القاطع، فلو سألتنى أن أمنعك رزقى ما أجبتك، ولو سألتنى أن أحرمك من فضلى ما حرمتك، فكيف وأنت دائماً تسألنى وكثيراً ما تطلب منى؟ فاستحى منى، وإن كنت لا تستحى منى فافهم عنى، ولقد أُعْطِىَ كل العطاء من فهم عنى.

أيها العبد، تخيرنى ولا تتخير علىَّ، وَوَجِّهْ قلبك بالصدق إلىَّ، فإنك إن تفعل أريك غرائب لطفى وبدائع جودى وأُمتِّع سرك بشهودى، لقد ظهرت الطريق لأهل التحقيق، وتبينت معالم الهدى لذوى التوفيق، فبحقٍ سَلم إلىَّ الموقنون، وببيانٍ توكل علىَّ المؤمنون، علموا أنى لهم خير من أنفسهم لأنفسهم، وأن تدبيرى لهم

---

(١) الرِّفْد: العطاء والصلة. "مختار الصحاح".

(٢) مكافيها: بتخفيف الهمزة وقلبها ياءً، أى: مكافئها.

(٣) أى: لا أبقى لك شيئاً مما قسمته لك فى الأزل، فكل مقسوم لك أعطيه إياك.

أجدى عليهم من تدبيرهم لها فأذعنوا لربوبيتى مستسلمين، وطرحوا أنفسهم بين يدىَّ مفوضين، فعوضتهم عِوَضَ ذلك راحةً فى نفوسهم، ونوراً فى عقولهم، ومعرفةً فى قلوبهم، وتحققاً بقربى فى أسرارهم، هذا فى هذه الدار، ولهم عندى إذا قدموا علـىَّ أن أُجِلَّ منصبهم وأُعلِىَ محلهم وأنشرَ ألوية المجد عليهم، ولهم إذا أدخلتهم دارى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

أيها العبد، الوقت الذى أنت تستقبله لم أطالبك فيه بالخدمة فلا تطالبنى فيه بالقسمة، فإذا كلَّفتك تكفَّلت لك، وإذا استخدمتك أطعمتك، واعلم بأنى لا أنساك وإن نسيتنى، وأنى ذكرتك من قبل أن تذكرنى وأن رزقى عليك دائم وإن عصيتنى، فإذا كنتُ كذلك لك فى إعراضك عنى فكيف ترى أكون لك فى إقبالك علىَّ؟ ما قدرتنى حق قدرى إن لم تستسلم لقهرى، ولا رعَيت حق برى إن لم تمتثـل أمـرى، فـلا تعرضنَّ عنى فإنك لا تجد من تستبدله منى، ولا تغتنِ بغيرى فإن أحـداً لا يغنيـك عنى، أنا الخالق لك بقدرتى وأنا الباسط لك منتى، فكما أنه لا خالق غيرى كذلك لا رازق غيرى، أأخلق وأحيل على غيرى وأنا المتفضل، وأمنع العباد وجود خيرى؟ فثق أيها العبد بى فأنا رب العباد، واخرج عن مرادك معى أُبَلِّغكَ عـين المـراد، واذكر سوابق لطفى ولا تنس حق الوداد.

أردنا أن نختم هذا الكتاب بدعاءٍ مناسب لما هو موضوعٌ له.

اللهم

إنا نسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد

اللهم اجعلنا من المستسلمين إليك، ومن الدائمين بين يديك، وأخرِجْنا من التدبير معك أو عليك، واجعلنا من المفوِّضين إليك **اللهم** إنك كنت لنا من قبل أن نكون لأنفسنا فكن لنا بعد وجودنا كما كنت قبل وجودنا، وألبِسْنا ملابس لطفك، وأقبِلْ علينا بحنانك وعطفك، وأخرِجْ ظلمات التدبير من قلوبنا وأشْرِقْ نور التفويض فى أسرارنا، وأشهِدْنا حسن اختيارك لنا حتى يكون ما تقتضيه فينا وتختاره لنا أحب إلينا من مختارنا لأنفسنا **اللهم** لا تشغلنا بما ضمنت لنا عما أمرتنا ولا بشىء أنت طالبنا به عن شىء أنت طالبه منا **اللهم** إنك دعوتنا إلى الانقياد إليك والدوام بين يديك وإنَّا عن ذلك عاجزون إلا أن تُقْدِرَنَا، وضعفاء إلا أن تقوينا، ومن أين لنا أن نكون فى شىء إلا إن كونتنا؟ ومن أين لنا أن نصل لشىء إلا إن وصلتنا؟ وأنَّى لنا أن نقوى على شىء إلا إن أعنتنا؟ فوفقنا لما به أمرتنا وأعنا على الانكفاف عما عنه نهيتنا **اللهم** أدخلنا رياض التفويض وجنات التسليم ونعِّمْنا بها وفيها واجعل أسرارنا معك لا مع نعيمها ولذتها، وبك لا بزينتها وبهجتها **اللهم** أشْرِقْ علينا نور الاستسلام إليك والإقبال عليك ما تبتهج به أسرارنا وتتكمل به أنوارنا **اللهم** إنك قد دبرت كل شىء قبل وجود كل شىء، وقد علمنا أنه لن يكون إلا ما تريد وليس هذا العلم نافعاً لنا إلا أن تريد فَرِدْنَا بخيرك، وشئنا بفضلك، واقصدنا بعنايتك، وحُفَّنَا برعايتك، واكسنا من ملابس أهل ولايتك، وأدخِلْنا فى وجود حمايتك إنك على كل شىء قدير **اللهم** إنا علمنا .أن حكمك لا يُعَانَدُ وقضاءك لا يُضَادُّ وقد عجزنا عن رد ما قضيت ودفع ما أمضيت فنسألك لطفاً فيما قضيت، وتأييداً فيما أمضيت، واجعلنا فى ذلك ممن رعيت يا رب العالمين **اللهم** إنك قد قسمت لنا قسمة أنت موصلها لنا

فوصلها إلينا بالهناء والسلامة من العناء، مصانين فيها من الحجبة، محفوفين فيها بأنوار الوصلة، نشهدها منك فنكون لك من الشاكرين، ونضيفها لك ولا نضيفها لأحد من العالمين. **اللهم** إن الرزق بيدك رزق الدنيا والآخرة فارزقنا منها ما تختاره وعلمت فيه المصلحة لنا والعود بالجدوى علينا **اللهم** اجعلنا من المختارين لك ولا تجعلنا من المختارين عليك، ومن المفوضين لك لا من المعترضين عليك **اللهم** إنا إليك محتاجون فأعطنا، وعن الطاعة عاجزون فأقدرنا، وهب لنا قدرة على طاعتك وعجزاً عن معصيتك، واستسلاماً لربوبيتك، وصبراً على أحكام إلهيتك، وعزاً بالانتساب إليك، وراحة فى قلوبنا بالتوكل عليك، واجعلنا ممن دخل ميادين الرضا وكَرَعَ من تسنيم التسليم[1]، وجنى من ثمار المعارف، وأُلبِسَ من خُلَعِ التخصيص، وأُتْحِفَ تحفة القرب، وفوتح من حضرة الحب، دائمين على خدمتك، مُحَقّقين بمعرفتك، متبعين لرسولك وارثين عنه وآخذين منه ومحققين به وقائمين بالنيابة عنه، واختم لنا منك بخير يا رب العالمين

آمين آمين آمين

(١) أى: شرب تناولاً بقلبه وسرّه من شراب ماء تسنيم التسليم، كما يشرب المرء بفيه تناولاً من غير كفٍ ولا إناءٍ من ماء التسنيم وهو ماءٌ فى الجنة يجرى فوق الغرف والقصور.

تم الكتاب المبارك بحمد الله وعونه

وهو كتاب

"التنوير فى إسقاط التدبير"

على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه

إبراهيم بن عبد الله بن فروينه(١)

- غفر الله له ولوالديه ومن يدعو له تؤمن الملائكة على دعائه له بمثله -

وذلك لستٍ بقين من شهر شعبان المكرم سنة ثمان وستين وسبعمائة

أحسن الله خاتمتها

آمين آمين آمين يا رب العالمين

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله

حسبنا الله ونعم الوكيل

قام بالتحقيق

محمد عبد الرحمن الشاغول

مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمى

وتحقيق التراث والتصحيح والمراجعة

ت: ٥٤٥٩٧٥٠ - ٠١٢٠٣٨١٥٢٠

---

(١) أشبه شيءٍ قراءةً من المخطوط.

فهرس المحتويات